دكتور حسين فرج زين الدين

من الأعماق

obeikandl.com

obeikandl.com

إهـــداء

إلى الأستاذ رضوان خالد

وكيل كلية التجارة — جامعة فؤاد الأول

عزيزى رضوان :

قد تلمس بعض نواحى نفسك الطيبة فى هذه القصص .

وقد تجد فيها بعض ما أوحيت فهى منك وإليك .

دكتور حسين فوزى نور الدين

obeikandl.com

مقدمة

لحضرة الدكتور أحمد زكي الحفني

مراقب الصحة المدرسية

في شرخ الشباب وإبان الفتوة ، وفي مدينة فينا موطن العلم ومسرح الجمال ومرتع الحب ومهبط الخيال ، عرفت منذ ربع قرن كاتب هذه القصص ، وانعقدت بيننا صداقة وثيقة الصلات بحكمة الرباط ، مازلت أنعم بها .

رأيته أول مرة فرابني من أمره سمات هي مزيج من جد وعناد ودهاء ، وإلى جانب قامة فارعة وجسم مفتول . وما استقر بي المقام وتكرر اللقاء ، حتى استحالت ريبتي فيه ثقة ، ورهبتي وتقاعسي عنه ، إقبالا عليه ورغبة في وده . ولا غرابة في هذا إذ قد اجتمع له إلى خشونة المظهر ، لطف المعشر ، وإلى البدن القوي المفتول عاطفة مرهفة ومنطق معسول ، وليت اجتماع الأضداد فيه يقف عند هذا الحد ، بل أن ماترى على سماته من جد وعناد ودهاء هو طلاء رقيق يحجب ما انطبعت عليه هذه النفس الخيرة من مرح ودعابة وصراحة وإخاء ، هي قوام عناصر شخصيته

رأيته كثير الاطلاع كثير التردد على المسارح ودور الخيالة ،

يسيغ الأدب ويغشى مجالسه مااستطاع اليها سبيلا ، ولم أعجب لذلك إذ لم تلبث أن تكشفت لى فيه ناحية الأدب وميول الأديب ، وطبيعة الكاتب الذى يعنى بالقصة الصغيرة ، ويوليها رعاية ودراسة ، فهى عنده أهم أداة وخير وسيلة وآمن سبيل لأسلاس قيادة الشعوب وتوجيهها إلى جادة الخير والصلاح ، وانتزاعها من نزوات الشر والفساد .

أجل إنه قصصى بطبعه وسليقته ، حتى أنه ليقص عليك الخبر العادى فى إطار قصصى يسترعى السمع ويثير النفس ، فاذاهو قصة كاملة لا تخلو من عظة وعبرة ونقد وتقريظ . ولا شك فى أنه كان لدراسته الأدب على عباقرته ومالكى نواصيه كالأساتذة الأفاضل الزيات والمازنى والعقاد . وفى قراءته التى لا تنقطع لأساطين الكتاب الغربيين ماهذب هذه الهبة وجلاها ، أما مايبدو على انتاجه الأدبى عموما وعلى هذا الكتاب خاصة من مسحة غربية ، فهو لاشك بعض آثار مكثه فى أوربا زمنا ليس قصيرا اكتملت أثناءه رجولته وأتم فيه دراسته ، وانطبعت فى غضونه شخصيته بلون من كيفية تفكير أبناء الغرب ، وأسلوبهم فى الكتابة والعرض يضفى على بعض قصصه الأهاب الغربى الذى تلمحه عليه — هذا فضلا عن أن أصل بعض القصص الذى يحتويه هذا الكتاب يرد إلى شائعات تتداولها الألسن فى أوربا الوسطى أو إلى مايحكى عن بعض الآثار من غامض الأسرار .

وإذا عرفنا أن كاتب هذه القصص من أسطع علماء الحيوان فى هذا

البلد وأغزرهم إنتاجا فى هذه الناحية وتوفرا على هذا النوع من البحث العلمى البحت ، لأخذتنا الدهشة إذ أن القصص والأدب هما الغالبان فيما صنف وكتب فى العلوم البحتة ، وإنه لمن العجب المطرب أن يقرأ الإنسان كتبه : مع الأسماك ومع الحيات ، ليرى الأبحاث العلمية العميقة فى إطار من أدب رفيع وقصص رائع بديع ، ولينعم بهذه الحقائق العلمية الثابتة فى جو القصة والخيال .

وبعد فهذا الكتاب قد اجتمع له من مختلف القصص مايعالج شتى نواحى النقص فى المجتمع ، فيها ما يعالج مشاكل الأسرة وماينشر دخائل النفوس ويطب لأدوائها بأحدث وسائل علم النفس ، وفيها ماينهنه من نزوات البشر ويكفكف من شرورهم ، وفيه بعد ذلك العظة البالغة لمن أراد أن يتعظ ، والعبرة القاسية لمن أراد أن يعتبر ، وفيه السمر الحلو الشائق ، والدعابة المستملحة ، والحقائق المرة ، والواقع الاليم ، بعد الحقائق الثابتة . وهو إن شئت بستان فيه لكل مايشتهى من ثمرات — ولقد كانت خاتمة المطاف « مذكرات معلم فى الأرياف » ولقد كانت هذه المذكرات من الحقيقة والواقع لايشوبها شك ولا تنتابها ريبة ، ولكنها غدت اليوم فى ذمة التاريخ ، بفضل مابذل لهذه الفئة العاملة ولهذا الفريق المنتج الذى يضطلع بمسئولية عامة بعيدة الأثر من إنصاف وترضية ،

ولعل لهذه المذكرات أيضا أثرا فيما أسبغ على المعاصرين من نعمة ، وما عرف لهم من فضل .

وبعد ، فأنى ما قصدت بهذه الكلمة المقتضبة أن أتكلم عن العالم الأديب ، بل إنها الذكرى أيام من الشباب سلفت واعتراف بنعمة صداقة مازلت حريصا عليها ، وبفضل صديق أنا به معتز فخور !!

محمد زكي الحفني

الرقص فوق الأعماق

كلما أطلت النظر فى الأعماق ...
تطلعت إليك هذه الأعماق ...

كنت أقطع أحد شوارع القاهرة فاعترضتنى فجأة سيارة كادت تدهمنى لولا أن وقفها سائقها بمهارة وسمعت من داخلها صيحة فزع لم ألبث أن عرفت فيها صوت صديقى عباس الذى ابتدرنى قائلا : الحمد لله — كنت على وشك أن أقتل عزيزاً ؟ وفتح باب السيارة ودعانى إلى جولة ممتعة فى الخلاء وترك لى اختيار المكان الذى نجلس فيه . اقترحت نزهة إلى الأهرام نجلس بعدها فى أحد المشارب القريبة من تلك الأبنية الشاهقة التى تطل على القاهرة الجميلة وكأنى بها تقص عليها فى همسات قصة الماضى المجيد ... كانت آثار النعمة بادية على هذا الصديق . وقد عرفته أديباً مثلى لا يقنع من الحياة ونعمها إلا بالتفرج على واجهات المحال والتحسر شأن الحسناء الفقيرة وهى تقطع شوارع القاهرة جيئة وذهابا ، وكان آخر عهدى به يوم أن انخرط معنا فى سلك جماعة الأدب الرفيع ، ولم أره بعد ذلك اليوم وقد اختفى عنا ولم يحضر اجتماعاً واحداً لهذه الجماعة ، وهأنذا أراه اليوم أمامى أقلب فيه ناظرىّ فى دهشة وهو يقود سيارته الفخمة فى بزة على أحدث طراز يجسد عليها وقد تدلى منديله الحريرى وراحت الكرافتة تميل وتتطاير مع النسيم العليل ، ولم أكن قد رأيته فى هذه النعمة فناجيت

نفسى : « ما شاء الله — لعل صديقى الأديب هبط على عجوز شمطاء فتزوجها ثم خنقها أو قتلها بطريقة شيطانية لم يكشفها رجال المباحث الأذكياء وآلت إليه أموالها الطائلة ، أو لعله ورث هذه الثروة العريضة عن عم أو خال أو قريب مات فى أمريكا الجنوبية أو الشمالية أو فى سيبريا أو فى بلاد تركب الأفيال .. ولكن صديقى لا يمت إلى الفينقيين بسبب ، فهو صعيدى قح لم يتخلص بعد من لهجة أهالى مقاطعة ديروط و منفلوط ... ناجيت نفسى بهذا و بأكثر من هذا ولكنى لم أستطع أن اقنع نفسى بما يرضيها عن مصدر هذا الثراء الواسع الذى هبط على صديقى الأديب ؛ فقد أستطيع أن أفهم أن مخلوقا من مخلوقات الله أثرى من أى عمل إلا من تجارة الأدب !! وأخيراً همس فى صدرى أن صديقى قد يكون جاسوساً يعمل لحساب إحدى الدول الكبيرة ! ولقد شاع السرور فى نفسى حين اهتديت إلى هذا الكشف ! ! !

لم يطل تفكيرى لأن صديقى كان من الذكاء بحيث لم يدعنى أسترسل فى التفكير إذ قطع علىّ حبله وقال « لن أجد عناء كبيراً فى قراءة أفكارك وأحسبك تود لو تعرف شيئاً عن سيارتى وقميص الحريرى ... » وتوقف عن الكلام وأخرج علبة سجاير ذهبية وأردف « سأحدثك يا صديقى عن كل هذا ... خذ سيجارة عظيمة وأحب قبل أن أبسط لك حديثى أن أسألك عن جماعة الأدب الرفيع ؛ وهل لا زالت على نشاطها تغذى سوق الأدب بالطريف والتالد ؟ » . قلت « إن من الخير ألا نتحدث عن الأدب الرفيع ؛ فقد أتيح لنا ما هو أجدى وأنفع ،

إذ عكفنا — منذ غيبتك عنا على دراسة فوائد الفقر والجهل والمرض ! وسترى عصارة أبحاثنا مدونة فى مؤلفات تشيع بين الناس ليتبينوا منها خطأهم فى فهم هؤلاء الأعداء الثلاثة ، فلا يعودوا لمحاربتها ! »

وقاطعنى صديقى قائلا « كفاك تهكماً ! فليس هذا شأن من يبحث عن المجد فى ظل الفقر ! » ثم ضحك ضحكة ساخرة . وكنا قد وصلنا إلى أحد المشارب وكان الهرم الأكبر يشرف علينا وقد ربض إلى جانبه أبو الهول الذى ظل مضرب الأمثال فى الصمت ، ولكنى حسبته هذه المرة راغبا فى الخروج عن صمته ، وشعرت كذلك أنه يريد أن يضحك ضحكا عالياً فيه سخرية . استرحنا قليلا وشعر صديقى أنى أشوق ما أكون إلى سماع حديثه ولكنه بدلا من أن يتكلم ابتسم فى شىء من الخبث وراح يرسل إلىّ نظرات فاحصة لم أستطع صبراً وقلت له « أنى أمقت هذه النظرات التى تفحص بها ملابسى ، ولا أخفى عنك سراً — بل أصارحك بأنى مفلس كما كنت أنت فى العام المنصرم » — زبت صديقى على كتفى فى كثير من المودة وقال لى « أراك عصبياً يا عزيزى ولكن أسمع حديثى . . . لست فى حاجة لأن أقول لك إن حالى قد تغيرت وتبدلت بعد أن هجرت أدبك الرفيع . لقد كتبت « موكب العباقرة » وعرضت فيه لجوته العظيم وتولستوى نصير الفقراء وكتبت كذلك « الرقص فوق الأعماق » وكتاب « القافلة تسير » ورحت أعرض هذه البضاعة فى سوق الأدب وأنت تعرف ما نقاسى فى سبيل هذا النوع من الكتابة الذى يتطلب منا سهراً

طويلا ونظل نكابد ونعانى وننفق فى سبيله ثمن ما نقيم به الأود . . . فالمراجع التى نشتريها نقتطع ثمنها من قوتنا اليومى وحين نعرض على الناشر الكتاب يقلبه ويقول أن أغنياء الحرب يا سيدى وهم الآن القراء الوحيدون فى هذا البلد لا يستسيغون هذا النوع من الأدب الرفيع جداً ! أكتب لنا عن المفاجآت والقتل والحرق والنصب والغواية . . نريد حوادث يا سيدى ! ! ثم ينظر إلى فى ابتسامة ويقول لى وهو يطيب خاطرى أنه أدب رفيع جداً وفى استطاعتك أن تنقله إلى إحدى اللغات الحية فى أوروبا واستراليا وجزائر النار . فهناك قراء يفهمونه ويقدرونه . . . ولعل الناشر نسى أو تناسى أننى لا أستطيع أن أنقله إلى لغات الغرب بعد أن نقلته عنها . . . وظل الفقر حليفى ولم أشأ أن أتخلى عن بضاعتى من الأدب الرفيع ونسيت أن كل القراء أغنياء حرب وأدعياء علم لا يستسيغون أدبى ولا أدب غيرى . ثم عضنى الفقر بنابه وضقت ذرعاً بهذا الأدب الرفيع . ولم أعد أطيق النظر إلى واجهات المحال وهى تعج بشتى الضروريات والكماليات ولا حيلة لى فى شرائها ، وكرهت النظر إلى السيارات العامة والخاصة ما دمت لا أجد السبيل إلى ركوبها وهممت أكثر من مرة أن أحطم زجاج أحد المحال لأختطف منه شيئاً ، ولكن لأطفىء نار الثورة المستعرة بين جوانحى ! ! ! وكذلك كدت أقتل أحد الناشرين لولا أنى رأيت أن الرجل معذور . . فإن قراءه أغنياء حرب . وأخيراً فكرت فى قصص المفاجأة والقتل والحرق والغواية . وقلت لنفسى ماذا يضيرنى فى ذلك . أنى لا أقتل ولا أحرق أحداً ولكنى

أترك الناس يقتلون أنفسهم أو يقتلون غيرهم ويحرقونهم فى قصص .

وكتبت أول قصة وأنى أعتز بها لأنها أول قطرة انهال بها السيل على من مال وثناء وشهرة فقد عرفنى الجميع — الجزار الغنى و بائع الدجاج المثرى والحسناء نصف الجاهلة — عرفنى الجميع — بما يطلع عليهم من قصصى فى دور السينما أو ما يذاع من أغانيها فى الراديو . أما قصة « الرقص فوق الأعماق » و « موكب العباقرة » و « جولة فى المريخ » وغير ذلك فأقسم لك أنى أحرقت كل هـذه غير آسف ومحوت الفقر . . . ومن عجب أن شبحه اختفى عـــند ما ودعت الأدب الرفيع ! ! ولـكننا يا صديقى فى شمال أفريقيا أو قل فى وسطها ، هذه القارة المظلمة ، وهاك هذه القصة التى استقبلت بها الأدب الرخيص وكانت فاتحة عهد جديد فى خيالى فسعى إلى المال والمجد . . . »

وأمسك صديقى عن الـكلام ثم عاد يقول « جلس البارون (م) أو (ل) أو أى حرف آخر فى غرفة مكتبة يطل على مزارعه الواسعة فى أية مقاطعة من بلاد الله العامرة بالبارونات . ولا يهمنا هنا يا صديقى أن نقرأ فى مراجع ونشترى الـكتب وندفع فيها ثمناً غالياً ونقترض من أجل ذلك فهذا النوع من القصص فى غنى عن التاريخ والجغرافيا كما ترى . . . جلس هذا البارون وكان فى عقده الرابع ولا أقول الخامس فأنى أريد أن يحتفظ الرجل ببعض شبابه وفتوته . ومادام بارونا فلا حاجة بى لأن أقول إنه أنيق الملبس فارع العود واسع العينين جميل رغم ما يبدو على وجهه من شحوب وحزن وكآبة . كان البارون يفكر حين دق

الباب ودخل وكيل أشغاله وانحنى أمام سيده وقال فى أدب جم وصوت يكاد يكون همساً «لقد حضرت أرملة ومعها ابنتها تريد أن تستأجر البيت الأخضر» ورفع البارون رأسه فى حركة يفهمها البارونات وخدهم ولابد أن يتعلمها الممثل المسكين فى هليود بأمريكا وشركة النجم الأصفر فى بركة الفيل ويعانى هذا الممثل البائس فى ذلك الكثير لأنه ليس بارونا. رفع البارون رأسه وقال فى سآمة «أغرب عن وجهى أيها الوقح لقد أخبرتك أكثر من مرة أن هذه الإيجارات لا تهمنى فى كثير ولا قليل وهى من صميم عملك وأنت تعرف كذلك أنى لا أحب أن يذكر أمامى شىء عن النساء» — تراجع الرجل المسكين إلى أن اصطدم بالباب وانحنى وفتحه واختفى — وهذه حركة أخرى يجيدها الممثل فى أمريكا وافريقيا لأنه قبل أن يحترف التمثيل يتراجع حتى يصطدم بالباب أمام رئيسه أو زوجته أو حماته . كان البارون برما بحياته ، وقد جلس هذا الصباح ينظر فى حسرة إلى لوحة نقشت عليها شجرة النسب لأسرته العريقة التى نيفت على قرون سبعة — شجرة كانت باسقة وهى الآن عقيم لا تثمر بعد أن أصبح المسكين يعاف النساء من نكبة عائلية . والبارونات يصابون عادة بنكبات عائلية. فالبارونة لا تعمل شيئاً طيلة يومها والفراغ يمضها والوحدة تضنيها . وما عساها تعمل فى يومها ولها خدم كثير ووصيفات، فهى تدخن لتشغل وقتها وقد ترسم أو تقرأ أو تستحضر من يقرأ لها ثم تراقص فى المساء من تشاء وتشرب الخمر مع من تشاء . ولها معجبون عديدون ؛ ثم هى تركب الخيل وتخرج إلى الصيد فى جماعات

من بنى آدم وخيول وكلاب ، ثم هى تضل الطريق ويضل معها فارس ويختلى بها فى الغابة ! وقد يكون ذلك مدبراً فيما بينهما . فيكاشفها الفارس المغوار فى هذه الخلوة حبه وغرامه وتكاشفه هى الأخرى حبا وغراما ؛ ثم تعود ويعود معها هـذا الفارس إلى الجماعة بعد أن تعاهدا على الحب والفرار للتخلص من هذه الزوجية المملة . . .

فـكر البارون فى زوجته التى فرت مع عشيقها إلى بلد آخر من بلاد الله وشركات السينما تحب التغيير والتنقل ولا بد أنهما ذهبا إلى (فينسيا) أو بلد آخر جميل وهنـــاك الجندول والرقص والحمامات فى (الليدو) . . . فرت هذه الزوجة مع هذا العشيق ولا بد أن يهجرها ويتنكر لها بعـد أن أصبحت تمثل معه دور الزوجة ، فهى لا شك قد طالبت هذا العاشق المفتون بأن يتزوجهـا . . . فـكر البارون فى هذه الزوجة التى فرت وهى تحمل فى أحشائها جنيناً كان منتهى أمله أن يخرج إلى الدنيا فى هذا القصر العامر الجميل ولـكنها فرت مع ذلك الرجل الذى عاش معها زمناً غير قصير فى فينسيا الجميلة ولا بد أن تكون مناظر فينسيا حبيبة إلى قلوب رواد السينما وماتت الزوجة الخائنة فى المستشفى بعد أن هجرها عشيقها وعرف زوجها البارون أنها قضت نحبها وتبعتها طفلتها بعد وضعها بيوم أو يومين . . . وهذه المرأة خائنـة ، ولا بد أن تـكون كذلك ، ما دامت قد فرت مع عشيق ، ولـكن الحياة التى عاشتها هى التى دفعتهـــا إلى ذلك . فهل نستطيع أو يستطيع غيرنا فى القصص حملها على شغل وقتها فى المطبخ وفى تربية الأولاد كما تفعل

نساء الطبقة الوسطى ؟ فكر البارون فى هذا الماضى المؤلم ونظر إلى شجرة النسب فى حسرة بالغة ثم حمل أدوات الرسم من ألوان وفرش وخرج يضرب فى غاباته الواسعة ، فهذه مناظر جميلة تختلف عن مناظر فينيسيا لولا أن أملاك البارون الواسعة فيها بضعة جداول صافية . وكان الرجل يحب الرسم وهو سلواه الوحيدة فى هذه الوحدة القاتلة ، وكان يكره النساء منذ أن نكب فى زوجته . وعرف الناس عنه ذلك فلم تحاول إمرأة أن تعترض سبيله وهو فى طريقه إلى حيث يخلو بنفسه ليرسم ... وبعد أسابيع على هذه المقابلة الجافة بين البارون ووكيل أشغاله دهش البارون لوقاحة فتاة جلست فى غير مبالاة تحت شجرة صفصاف وارفة الظل لامست أغصانها المتدلية سطح غدير ينساب بين هذه المروج اليانعة . جلست هذه الفتاة ولم تحاول أن ترفع رأسها الجميل عن لوحة الرسم التى أمامها . ودهش البارون وحق له أن يدهش لجرأة هذه الفتاة ولا بد أنه ينفعل ويهتاج ويعود أدراجه . واهتم أيما اهتمام بهذا الحادث الذى طالعه لأول مرة من سنين عديدة ، وفزع الخدم ومن إليهم لغضب سيدهم وحقق البارون ودقق ثم عرف البارون أخيراً أنها إبنة الأرملة التى استأجرت البيت الأخضر . كان غضب البارون بالغاً لهذا الحادث المفاجىء ولكنه ؛ رغم ذلك لم يحاول أن يصدر أمراً إلى خدمه ليطردوها ويعكروا عليها صفو هذه الخلوة الهادئة وهى تعمل بريشتها . ولعله فعل ذلك لأنه عثر فى هذه الوحدة الخانقة على من يشاطره هذا الفن الجميل ، أو لعله فعل ذلك لأمر خفى عليه لم يدرك مصدره!

قفل البارون راجعاً ووقف على مقربة من هذه الفنانة وطفق يختلس النظرات إليها وكانت جميلة حقاً وقد افترشت العشب الأخضر ورنت إليها الأزهار البرية تختلس إليها النظر كذلك . وقف البارون مشدوهاً أمام هذا الجمال الرائع وساءل نفسه : كيف انحدرت هذه الفتاة الجميلة من أسرة متوسطة ليست لها شجرة نسب عريقة؟ ثم اقترب منها رويداً كأنها تجذبه إليها جذباً ؟ والرجل في عقده الرابع ولا يزال يجرى فيه دم الشباب ولا يشغل نفسه في عمل معين كما يفعل رجال الطبقة المتوسطة . وكانت الفتاة جميلة حقا ولا بد أن تكون كذلك لأن رواد السينما يحبون أن تكون البطلة جميلة وجميلة جداً . ظل البارون يقترب من الفتاة إلى أن أصبح أمامها ونظر إليها فإذا هي قطعة فنية نادرة؟ والبارونات يحبون القطع الفنية النادرة . فهم يدفعون مثلا ألف جنيه في طابع بريد قديم ، ثم هم كذلك يدفعون أكثر من هذا في شجرة لا تثمر شيئا ولعلهم لا يدفعون مليما واحداً في شجرة جميز رقد تحتها (ايزوريس) آله الخير والبركة ؟ أدار البارون بصره إلى اللوحة وجعل يحدق فيها ولم تحاول الفتاة أن ترفع بصرها إليه بل راحت تعمل بريشتها في غير اكتراث . ثم حول البارون نظره إلى الفتاة وقال لها : « كيف تجاسرت على الجلوس هنا ؟ » ثم ابتسم وأردف « لقد حرمت على الجنس اللطيف ارتياد هذه الأنحاء » . لم تجب الفتاة بحرف واحد وعاد البارون يحدق النظر في وجه هذا الغزال الشارد ولكن الفتاة لم تعر نظراته اهتماما وجمعت أدوات الرسم وألقت عليه نظرة فاترة وانصرفت...

وكان اليوم الثانى من هذه المقابلة الجافة واقترب البارون من فتاته ولكنها كانت فى هذه المرة مرحة بعض المرح وحياها البارون بانحناءة قصيرة وقال لها فى أدب البارونات أنه يحب الرسم كما تحبه وهو هوايته الوحيدة وطفق يتكلم عن أشهر المصورين والفنانين وتكلم كذلك عن أشهر الصور فى متاحف العالم وانتقل بعد ذلك ينقد صورتها نقداً بارعا . ولكن الفتاة لم تعقب على كل ذلك بكلمة واحدة وجمعت أدواتها وانصرفت بعد أن حيته بانحناءة قصيرة ... وكان اليوم الخامس وكانت الفتاة قد غيرت مكانها واستبدلت به مكاناً آخر بين أشجار البلوط العتيقة ولعلها أرادت هذه المرة أن تجر البارون إلى مكان بعيد عن الرقيب والعذول . فهى قد لمست عاطفة الرجل الجامحة وأرادت أن تستوثق من حبه لها . وجعل البارون يبحث عنها وراح يهيم على وجهه إلى أن التقى بها فى هذه الخلوة الشاعرية وكانت تتبع بنظراتها (الكوكو) وهو يغازل صاحبته فى حنان ودعة . كانت الفتاة تراقب حركات الطائر المفتون فى غبطة وسرور إلى أن قطع عليها البارون هذه الغبطة وهذا السرور بظهوره المفاجىء . وكان قد اختفى وراء جذع بلوطة وخرج عليها وهو يقول : « اسمحى لى أن أجلس إلى جانبك وثقى أننى لا أضايقك » وأخرج أدوات الرسم واللوحة وجعل يعمل بريشته . وكانت الفتاة تنظر إلى لوحته فى إعجاب شديد وقد طفحت عيناها بالبشر وبدت على أساريرها آيات من الحب ناطقة بما تكن لهذا الرجل من عاطفة قوية .

كان البارون ماهراً فى فنون الغرام مهارته فى الرسم وقد يكون تعلم ذلك وحذقه على أستاذه (الكوكو) الصغير . وكانت نظرات وابتسامات؛ وكانت قبلات. ولكنه لم يذهب معها فى هذا الفن بعيداً . وظلا على هذه الحال ينعمان بنوع من الحب البرىء بين أحضان الطبيعة ومن حولها الزهور والأطيار . وكان طائر (الكوكو) المفتون فى هذه المرة يرتو بدوره إلى العاشقين يتعلم منهما ما فاته من غزل وهيام. وكانت الفتاة جريئة حقاً وهى تقول لحبيبها : « لقد عرفت أنك تكره بنات جنسى ولعل هذا ما حببنى فيك ، فأنا أتوق إلى المغامرة فى الحب وأرغب عن الصيد السهل » .

وكانت مقابلات كثيرة فقد واتت الفرصة البارون وفتاته . فسافرت الأرملة لبعض شأنها ثم عادت بعد أسبوع أو أكثر وطلبت مقابلة البارون على انفراد . ولما تم لها ذلك صارحته قائلة « أنها نزلت مريضة فى أحد المستشفيات فى فينيسيا وتصادف أن كان إلى جوار سريرها سرير زوجته ، وأنهما وضعتا طفلتين فى ليلة واحدة . وبعد أسابيع ماتت البارونة ولم تمت طفلتها كما أشيع ، بل ماتت طفلتى ، وكانت قد توثقت بينى وبين البارونة المسكينة صلات ود وإخلاص وباحت لى قبل موتها بكل ما عانت مع عشيقها . ثم عهدت إلى وهى تعالج سكرات الموت أن أقوم على تربية وحيدتها ورعايتها كما لو كانت طفلتى ، وسلمتنى قرطا من الماس وهى تقول لى فى صوت خافت كأنه الهمس « تعهدى هذه الطفلة بعطف الأم وحنانها وما أحسبك إلا فاعلة .

حتى تكبر ويشتد عودها ولا تبوحى لها باسم أبيها إلا بعد أن تمهدى لذلك بمقابلات ، ولا تخبرى أباها هو الآخر بشىء عن ابنتـــه حتى تستشعرى فيه حب الأبوة لأنى أعرفه وأعرف أنه يكن لى الكره وقد يكره كذلك هذه الطفلة البريئة من أجلى » وهكذا قد برئت بما عاهدت عليه هذه المسكينة وهى تجود بأنفاسها الأخيرة فقد نشأت الفتاة خير تنشئة ولم أفض إليها بشىء عن ماضيها . وهاك القرط ولعلك عرفته وها هى ذى ابنتك أردها إليك ... والله يعلم أن فراقها قد يحز فى نفسى ويذهب بعقلى » .

نظر البارون إلى القرط وقد أخفى انزعاجه وود لو كذبته عيناه فلا يرى فى هذا القرط هذه الحقيقة السافرة . كادت الأرض تميد تحت قدميه وهم أن يبطش بالأرملة فخانته قواه وتهالك على مقعده وود لو أنها باحت للفتاة وأبيها بما تعلم حتى لا يندفعان فى هذا الحب المحرم . . . وسرعان ما عادت به الذاكرة إلى زوجته الخائنة فثارت فيه من جديد رغبة الإنتقام من زوجته فى شخص ابنتها ... هذه الرغبة التى ظلت كامنة منـذ فرار زوجته وعشيقها ولم يستطع إذ ذاك اللحاق بهما فيقتلهما ويمحو عن اسمه هذا العار . وهنا اكفهر وجه البارون وظهرت على أساريره أمارات الحنق والغضب واعتزم أمرا أسره فى نفسه بعد أن صرف الأرملة بإيماءة فاترة دون ما تحية ...

قصد البارون فى هذا المساء إلى البيت الأخضر وكانت السماء ملبدة بالغيوم والقمر فى صراع دائم مع السحب القاتمة التى لم تلبث أن حجبته

فلم يتح له أن يشهد خاتمة هـذه المأساة وعصفت الريح وقصف الرعد إيذاناً بزوبعة مروعة قـد يعقبها سيل من المطر يجرف ما تساقط من أغصان وأوراق ..

اعتـدل عباس فى جلسته ونظر إلى قائلا « ألا ترى معى أن منظرا كهذا لو أخرجه مصور سينمائى بارع لأثر به فى نفوس رواد السينما حتى لو لم يكن لهـذا المشهد أدنى علاقة بموضوع القصة ؟ » ثم عاود حديثه فقال « دخل البارون البيت الأخضر هذه الليلة وفى نفسه ما فيها من ثورة مكبوتة وظل وقتاً غير قصير إلى جانب ابنته هادئاً ساكناً ولم تفهم المسكينة سر هذا الهدوء، ولم تحاول أن تسأله إلى أن غلبها النعاس . فانسل من الغرفة وأغلقها وأخذ معه المفتاح . واستحضر مشعلا وهم أن يضرم النار فى البيت وإذا بالأرملة تظهر فجأة وكانت تراقبه عن كثب وأخذت تصرخ « ابنتى ؟ ابنتى ؟ »

بهت البارون لهذه المفاجأة والتفت إلى الأرملة فى نظرات متسائلة وقال « حسبتها ابنة تلك الخائنة ؟ . . . ثم تراجع وألقى بالمشعل بعيداً . فلم يلبث أن هدأ روع الأرملة بعـد أن أيقنت بنجاة ابنتها من موت محقق ، وطفقت تقص على البارون كيف أنها توسلت بهذه الحيلة إلى إيهامه أن الفتاة ابنته فى حين أنها لا تمت إليه بصلة وأنها هى ابنتها وأبرزت له شهادة ميلادها وهى كأم أرادت أن ترى ابنتها فى رغد من العيش تحت كنف أب واسع الثراء مثله وما قصة القرط الذى وهبته البارونة لهـا جزاء خدمتها لها قبيل وفاتها ، إلا أكذوبة أرادت

بها حبك ادعائها : أما ابنته فقد لحقت بأمها بعد أسبوع من موتها وهنا هدأت ثائرة البارون وألقى للأرملة بمفتاح الغرفة وعاد إلى قصره وبات ليلته يفكر فى هذه الحادثة التى كادت تنتهى بمأساة أليمة تذهب ضحيتها تلك الحبيبة الوادعة التى لم يكن يحس إثماً فى حبها .

انقضى على هذه الحادثة بضعة أسابيع كان البارون خلالها يحاول كبح جماح حبه للفتاة فاستعصى عليه أمره ولم يجد بداً من الزواج منها . فكان له ذلك لأن الفتاة كانت تبادله حباً بحب فعاشا فى هناء وكم كان يبسم لشجرة النسب وقد تدلى منها فرعان جديدان بعد أن ظلت عقيما زمناً طويلا .

سكت صديقى برهة ثم عاد يقول « وأقسم لك أن حوادث هذه القصة صادقة لا ريب فيها على أنى لم أكن لأهتم بهـــذا النوع من القصص الساذج لولا أن الناشر أطرى حوادثها الأولى فقد ملكت عليه حواسه وهو يتصفحها فى غير ملل ويقول « مرحى — مرحى يا أستاذ !! لقد سموت بالقصة إلى الكمال ؟ » وما أتى على الخاتمة حتى أمسك عن المديح وقال « لو كنت مكانك لحرقت البيت الأخضر وأسميت القصة « البيت الأخضر يحترق » ولبحثت للأرملة عن حادث يودى بحياتها وينتحر البارون فى مستشفى المجاذيب ... والأغانى يا سيدى ... ألست معى فى أنه يحسن بك أن تنظم لنا بعضها ؟ !! أنشودة مثلا فى أنواع وفوائد الشكولاته وأخرى فى صناعة الصابون وثالثة فى مخللات الخيار واللفت !!! لأنك لابد قد لاحظت أن قصص السينما لا تخلو من هذا

obeikandi.com

التجديد فى الموسيقى والغناء ! ! » فأجبت فى احترام « لك يا سيدى أن تقتل من تشاء فى قصتى ! ولك علىّ أن أبحث لوكيل أشغال البارون عن ميتة لا بأس بها كما لا مانع البتة فى قتل المؤلف نفسه إن كان هذا يرضيك ويرضى قراءك ! » .

نهض صديقى عباس وركبنا السيارة وما أن بلغت منزلى حتى ودعنى وقال « لا تنس يا صديق أن تحرق ما عندك من الأدب الرفيع إن أردت أن تهبط عليك الثروة والجاه العريض » .

فأجبته « لعلك نسيت أن فى العالم من لا يزال يبحث عن المجد من طريق غير هذا النوع من المال الذى هبط عليك ! » .

ومعذرة أيها القارىء الكريم إذا أنا انتحلت لقصتى هذا الإسم «الرقص فوق الأعماق» الذى لا يصلح لها ولا هى تصلح له؛ وإنما فعلت ذلك لأغرر بالأديب الحق فيقرأها وأفوت على أغنياء الحرب فيصدفوا عنها ؟

مصرع امرأة

تزوجت فى قنا سنقط رأسى من فتاة رقيقة الحال ، شاركتنى حياتى بأفراحها وأتراحها وحلوها ومرها ، ثم أنجبت لى ابنتى «السيدة» فاستقبلناها بفرحة عظيمة وأدخلت على حياتنا بهجة وسعادة ، فضاعفت من كدى وجدى لأهيىء لأسرتى الصغيرة الوادعة أسباب العيش ولأرضى زوجتى الشابة التى كانت تميل إلى الانفاق عن سعة لا يتحملها رزقى المحدود اليسير مما كان يسبب لى إرهاقاً ونصباً ، فكثيراً ما كنت أقوم برحلات شاقة خطرة تستدعى تغيبى عن دارى بضعة أسابيع كنت أجوب فيها أرض الله باحثاً منقباً عن الثعابين الخطرة كالناشر ولقد أظل الساعات الطوال أمام أحد الشقوق على جوانب الترع أترقب خروج هذا الثعبان المخيف حتى إذا ما طال انتظارى عمدت إلى فأس أحفر بها هذا الشق لأرغم ساكنه على مبارحته لأن الحاوى منا لا يستطيع صيد هذا الثعبان إلا إذا كان فى الخلاء فيضيق عليه الخناق ، ومايزال به يلقمه طرف عصاه حتى يفرغ الثعبان سمه فيمسك به دون خوف . وقد أدخل المقابر القديمة والمغاور لاصطياد البخاخ ، ذلك الثعبان الخطر الذى يتربص داخل حجرة ، ويقذف سمه على عين الفريسة فلا يخطىء هدفه . وكنت أعرج على الصحارى أجوس خلالها فكان الموت يترصدنى تحت الرمال حيث اندست المقرنات الخبيثة طوال نهارها ولم

يظهر منها إلا قرونها التي تشبه الديدان . ولطالما انخدعت الطيور بهذا المظهر فوقعت على هذه القرون لتلتقطها فتنقض عليه الأفاعي وتسممها وتلتهمها . وتظل المقرنات على هذه الحال حتى إذا غابت الشمس خرجت من أجداثها تغشى جحور اليرابيع وتفترس صغارها . وكثيراً ما كنت أتعقب (البرجيل) في هذه المنطقة ، فأمضي سحابة يومي دون أن أظفر به لأنه نادر الوجود ، وهو لهذا ثمين أتقاضى فيه أجراً طيبا .

وقد ينتهي بي الطواف إلى شواطئ البحر الأحمر باحثاً عن الأفاعي الخطرة كالشريبة وأضرابها ، فإذا ما عدت من جولاتي متعباً مكدوداً قابلتني زوجتي بالبشر والترحيب فيسعدني لقاؤها وأضع بين يديها كل ما حباني الله من رزق حلال .

وكان من عادتي كل مساء أن أخرج لقضاء بعض الوقت في مقهى مقابل لداري أروح عن نفسي بما أسمع من حديث القوم ، فلفت نظري ذات يوم تهامس الجالسين وتغامزهم كلما أقبلت عليهم ، فحملت ذلك على أنهم يتسامرون بحديث ثعابيني التي أصبحت معروفاً بها . . .

ولم يكن مما يدهشني أن أرى من مجلسي بعض النسوة يدخلن إلى داري متشحات بأثواب الضافية تكسوهن من الرأس إلى القدم ؛ وإنما كان يأخذني العجب من أن ترتفع عندئذ ضحكات الجالسين وأسمع دعاباتهم التي لا تخلو من قحة فأحار في تأويلها !

وكنت أحياناً أشعر بضيق وضجر من تصرف القوم فأترك المقهى إلى داري فما أكاد أدخل حتى تبادرني ابنتي قائلة :

« أن فى الدار ضيوفا يا أبى . . . جارتنا فلانة وصديقة معها » .

فأعود أدراجى حتى تنصرف النسوة ، فما كان لنا أن نجلس أو نرفع البصر إلى نساء غير نسائنا ؛ هكذا عودنا أهلونا وهكذا قضت عادتنا بقية الخير والصلاح . . . وأبقى بالمقهى يراود النوم أجفانى فأغفو لحظة أستيقظ منها على ضحكة ساخرة أو دعابة قذرة من سمار المقهى . . . حتى اذا ما حضرت ابنتى لنعود للدار بعد انصراف الزائرات تبعتنى ضحكات ونكات لا أدرك لها معنى ولا تأويلا

وحدث ليلة أن تأخرت فى مجلسى حتى انصرف القوم جميعاً ، فجاءنى صاحب المقهى واتخذ مجلسه بجوارى ، ثم أمسك بكتفى يهزه فى رفق ويقول لى فى صوت خافت متردد :

« أما أفقت من غفلتك يا شيخ عمران ؟ ! ! أن امرأتك تخونك وتستقبل عشيقها كل ليلة فى دارك ، فيدخل إليها أمام بصرك فى زى النساء بصحبة عجوز لعينة ! إنك رجل صالح طيب القلب يا شيخ عمران وامرأتك تستغل طيبتك فتسخر بك . . . وقد آلمنى أن تصبح غفلتك حديث القوم وأن يثلم عرضك وأنت فى ظلام الجهل ! وقد اختلفنا بين راغب فى تنبيهك ومؤثر للكتمان خشية سوء العاقبة ؛ ولكنى آثرت أول الرأيين لعلك تتدارك الأمر بحكمة وروية دون أن تنسى القول الحكيم بأن النساء « عوج يعدلهن الطلاق » . . وأخذ الرجل الطيب يشد من عزمى وينصحنى بالحزم والتعقل ويذكرنى بطفلتى

وحاجتها إلى رعايتي ، ويحذرني من الحماقة التي قد تدفعني إلى إتيان ما لا تحمد مغبته !

ودعت الرجل بابتسامة باهتة شاكراً له صراحته حامداً له حسن نصحه . وقد دهش كما دهشت من نفسي لما لازمني من هدوء طول الوقت لعله كان نتيجة للصدمة التي أذهلتني ! وجررت قدمي جراً إلى الدار وقد تولاني وجوم عجيب ، ودخلت على امرأتي باسماً هادئاً ملاطفاً بينما كانت تستعر في نفسي ثورة جامحة نفي أوارها النوم عن عيني ، وقضيت الليل أقلب الأمر على وجوهه وأعاتب الأقدار على فعلها وقسوتها ، وأخذت الثورة تتأجج في صدري حتى هممت في الهزيع الأخير من الليل الساكن بخنق تلك المرأة الفاجرة ، وإذا بصوت طفلتي يناديني طالبة شربة ماء فيذكرني صوتها بها وقد كدت أنساها في ذلك الخضم المتلاطم من الهواجس والأفكار ، فلعنت الشيطان الذي أنسانيها واستهديت الله سواء السبيل وابتهلت إليه خاشعاً أن يهديني سبيل الرشاد في محنتي . . . وإذا بصوت المؤذن يؤذن لصلاة الفجر فيشق سكون الليل ويبعث إلى قلبي هدوءاً وسلاماً ، فاتجهت إلى الله في صلاتي بتوسلات حارة وعينين دامعتين وكأن هاتفاً هتف في أعماقي أن صوب سلاحك ولا تطلقه ولتعمل إرادة القدر وعدالته فتصيب من هو بالعقاب أجدر وللجزاء أحق !

وأنعمت الفكر في تدبير الخطة وشرعت في تنفيذها في الصباح فزعمت لزوجتي أنني مسافر ليومين أو ثلاثة ؛ وبينما كانت تجهز لي

بعض لوازمى عمدت الى قاعة الشابين وأخرجت منها إحدى الأفاعى المسماة (الفريبة) ودسستها بين طيات الفراش وأغلقت الحجرة وحملت زادى وانطلقت من الدار أطوف البلدة على غير هدى حتى غابت الشمس فعدت الى المقهى وانتحيت ركناً منعزلا بعيداً عن أعين الجالسين ولم تفتنى هذه المرة همسة من همساتهم أو إشارة من إشاراتهم ولكننى لم أبال كعادتى . وكلما ضاق صدرى اتجهت ببصرى الى السماء هامساً بصوت أكاد لا أسمعه « لتكن مشيئتك . . وإرادتك يا رب ! »

وإن هى الا برهة وجيزة ، وإذا بباب دارى يفتح فى عنف وسرعة ويندفع منه رجل فارع الطول يهرول فى بردة سوداء يحاول عبثاً أن يلقى بها على رأسه فلا يمكنه ذلك لارتباكه وذعره . !! وفى أعقابه امرأة عجوز، فأخذا يعدوان كأنما يطاردهما الشيطان ! ! ! وعلا فى نفس الوقت داخل الدار صراخ استغاثة فاختلط الأمر على الجالسين فى المقهى ، فجرى بعضهم فى أثر الهاربين وقصد البعض الآخر الى الدار ، وأبدى الجميع اهتماما كبيراً وانفعالا شديداً إلا أحقهم بالاهتمام والانفعال وهو أنا ! ! ! فقد قبعت فى مكانى هادئا أو قل ذاهلا مستسلما ! ! ! وتقدم منى صاحب المقهى وأشار الى الرجل الذى يعدو قائلا : « أصدقتنى يا شيخ عمران !! هاهو ذا غريمك المجرم !! » وكأنما أنساه انفعاله نصحه السابق لى فدفعنى بكلتا يديه وهو يصيح : « أما انتقمت منه يا رجل وقتلته !! » فكان جوابى الهادىء إليه : « ما بى حاجة إليه ! فما كان لرجل أن ينال من امرأة وطراً الا إذا كانت هى الراغبة الراضية ! ! ! »

وقمت إلى دارى وإذا بابنتى بقرب بابها تنهمر الدموع على وجنتيها فارتمت فى أحضانى وهى تشهق وتعول وتخبرنى فى كلمات يقطعها البكاء أن أمها تموت ، فقد عضتها الغريبة . . . واتجهت إلى أم طفلتى فوجدتها تلفظ أنفاسها الأخيرة والدم ينزف من فمها وأنفها فما أن لمحتنى حتى ألقت إلى بنظرة زائغة وتمتمت بصوت ضعيف : « كان الأولى بك أن تصوب حياتك وثعابينك إلى الفقراء فهو الذى أهوى بى إلى هذه الهاوية ! »

الثعبان البشرى

كانت مولدى بأحدى قرى مديرية قنا من أبوين فقيرين ، فلما تما عودى أدخلت كتاب القرية لأحفظ القرآن الكريم . وكان الفقيه رجلا اتخذ من تعليم الصبية القرآن حرفة له ومرتزقا ، وقد منى بقسوة فى القلب وغلظة فى الكبد ، فما كان الرفق أو الرحمة يعرفان سبيلا إلى قلبه الصلد . . . ولطالما حاولت أن أثنى أبى عما اختطه لى من سبيل فلم أفلح .

استسلمت لما قسم لى فكنت أقضى اليوم أكرر تلاوة ما يحفظنى إياه الشيخ ، فإذا أخطأت أو لحنت كان جزائى عن كل غلطة أو لحنة ضربة أو صفعة تصحبها عادة سبة أو شتمة ، ولا أدرى من أين كان للشيخ هذه الثروة الطائلة من عبارات الشتم والسباب !

فإذا ما انقضى النهار أو كاد فى هذا النضال البغيض بينى وبين الفقيه ، وبينى وبين نفسى الثائرة الساخطة على حظى العاثر . أرسل بى الشيخ إلى منزله لأقضى له حاجاته التافهة كأنه قد اتخذنى خادما أو تملكنى عبدا له ولربة بيته الدميمة الرعناء المغرورة !

وكان يزاملنى فى سجن هذا الشيخ صبى اسمه « سعدون » يقاسمنى مرارة هذه الكأس من الشقاء ، فكنا نجد العزاء فى مطارحة الشكوى ؛ ولكن من سوء طالعى أن كان زميلى أقل منى صبرا واحتمالا ، أو إن شئت أكثر منى جرأة وعنادا ، ففر من هذا الجحيم تاركا كتاب الشيخ

ودار السيدة حرمه المصون ، واختفى لأيام قلائل عند أحد أقاربه ، ثم عثر عليه أبوه وقد بلغ به الحنق عليه مبلغه . وفى ثورة من ثورات الجهل والحنق عول الرجل عملا بنصح بعض أصحابه ، على إدخاله إصلاحية الأحداث ، فهناك لن يجد سبيلا للهرب ، فضلا عن أنه سيكفيه عبء إيوائه وما كله وغير ذلك من تكاليف حياته التى كان ينوء بها كاهله ؛ ولكن كيف السبيل إلى إدخاله الأصلاحية دون جريمة يرتكبها الصبى ! ليست هذه بالعقبة الكؤود ، فقد وجد الرجل فى أصدقائه خير عون لتذليل هذه العقبة : فما عليهم لو لفقوا جريمة للصبى وشهدوا هم عليه !! إنهم بذلك فيما يعتقدون ، يؤدون خدمة للابن وأبيه ؛ فالصبى سيصلح أمره ، والرجل سيخف عبؤه !

وهكذا أدخل الصبى إلى مدرسة الفقراء من صغار المجرمين ! وبعد أن قضى الصبى فى الأصلاحية زمنا غير قصير خرج منها كما دخلها فلم يتعلم فيها غير تنظيف الأرض والجدران والنوافذ والسكوت على الذل والضيم والأهانة !

حنق الصبى على أبيه وزمرته الذين جعلوا منه مجرما دون أن يرتكب جريمة ، ومذنبا بغير ذنب ولا جريرة ، ونقم على الجماعة التى نشأ بينها فما استطاع البقاء فى قريته ، فهجرها إلى مدينه قنا حيث التقيت به بعد أن هاجرت إليها ، عقب موت أبى هربا من سيدنا الشيخ .

وفى مدينة قنا لم يكن لنا مرتزق غير جمع العقارب وبيعها للحكومة مقابل مليمات معدودات نشترى بها مايسد الرمق إذا كان .. المحصول ..

وافرا ، وإلا فلا مناص من الطواف بالمطاعم والمشارب نستجدى الآكلين والشاربين فتاتا نتبلغ به شأن الحيوانات الطريدة !

وافتقدت زميلى (سعدون) يوماً على غير عادة فلم اهتد إليه ، فلما انقضت بضعة أيام علمت أن المسكين قد قبض عليه متهما بالسرقة .. ولم يمض كثير حتى جاءنى نبأ محاكمته و إيداعه إصلاحية الرجال سجينا مع كبار اللصوص والمجرمين !

وكان لى من صديقى التعس خير عبرة وأحسن موعظة . فابتهلت إلى الله أن يهدينى سواء السبيل ! وزادت نفسى ميلا إلى الخير وتعلقا بالفضيلة وشغفا بالعبادة ، وشاءت لى الصدف التعرف إلى أحد مشايخ الطريقة الرفاعية فاستهوانى ورعه وتقواه فلازمته واتبعته حتى إذا ما عرض على الدخول فى زمرة تلاميذه ومريديه ، أثلج هذا قلبى فأجبته مسرورا إلى طلبه وأخذت عليه عهدا — كما يقولون ...

وتعلمت أساليب الرفاعية وطريقتهم فى مطاردة الثعابين والأمساك بها وبرعت فى هذا الأمر حتى لقبت بـ (الحاوى) ، وحالفنى النجاح فكنت أدعى إلى المنازل والمزارع لأخلص ذويها من شر الثعابين وخطرها ، كما تعلمت كيف أداوى بدهنها بعض الحيوان ؛ ووفقت فى ذلك الوقت إلى معرفة بعض الأجانب الذين أوتوا من العلم بالزواحف غير قليل فكنت أساعدهم فى جمع أنواع من الثعابين كالبخاخ والناشر والغريبة ، وأعاونهم فى استخلاص السم من الأفاعى بغية القيام بتجارب علمية . وبين عشية وضحاها بدل الله من أمرى بعد العسر يسرا ، وبعد

الجهل والدجل نورا وعلما . . . فحمدت الله على ما أولانى من نعم جزاء استقامتى وملازمتى للشيخ الرفاعى وتبركى به وعملى بنصحه وأرشاده . .

وانقضت سنوات خمس . . وبينما أنا سائر يوماً إذا بيد تربت على كتفى ، فتلفت خلفى لأرى سيدا وقور المنظر يلبس من الثياب قشيبها وغاليها ويزين أصابعه بخواتم من الذهب الخالص فتكسبه ثيابه وحليه هيبة واحتراما ، وانتظرت أن يحدثنى السيد عن الثمانين أو يطلب إلى أخراج أحدها من داره كما كان يحدث لى كثيرا، فأذا بى أسمع صوتا مألوفا لدى يقول لى :

« كيف حالك الآن يا عمران . . ؟ وكيف يا رجل تمر بى وتكاد تلمسنى فلا تعيرنى اهتماماً ولا تقرئنى سلاما ؟ ! ! أتراك لم تعرفنى يا عمران ؟ »

لم أصدق حواسى عندما تفرست فى وجه محدثى فتبينت فيه وجه صديقى الغائب (سعدون) ، فعقدت الدهشة لسانى فلم تنفرج شفتاى إلا عن « ما شاء الله ... ما شاء الله ... » أكررها بغير انتباه .

وانتحينا ناحية هادئة حتى زالت عنى حيرتى ودهشتى فراح يقص على ما قاساه من الأم فى سجنه ، وما عاناه من شقاء ، فامتلأ حقداً على الناس وكراهية وسخطاً ، وكانت مشاعره تبدو فى عينيه وقسمات وجهه وهو يقول :

« يا للعجب يا أخى ! إننى لم أجد بين جدران السجن سجينا واحدا ينتمى إلى أسرة غنية ! فهل كان الفساد والإجرام والشقاء وقفاً

على أبناء الفقراء ! ؟ لا .. ونعم.. إنك تذكر ولا ريب ابن عمدة بلدتنا وتذكر أنه كان فى صغره أفسد خلق الله حتى ضج بالشكوى منه الجميع ولكن أباه الغنى بدل أن يلفق له جريمة يبعثه بها إلى الأصلاحية أرسله إلى المدرسة وتعهده بالعناية والرقابة وأنفق فى ذلك ما أنفق حتى صلح حال الصبى، وأصبح يبشر بخير الثمرات... هذا بينما ألقى بنا الفقر أطفالا بين يدى شيخ قد يعلم الكثير إلا العلم، فبث فى نفوسنا الكره له وغرس فى قلوبنا بذور الرذيلة ... إنه الفقر الذى ألقى بنا صبيانا بين يدى الموت نداعبه و يداعبنا كل يوم مرات ونحن نجمع العقارب والموت يلعب على أسنتها لكى نكسب من وراء ذلك مليمات نشترى بها ما يقيم أودنا ! إنه المال ياصديقى الذى يهيىء سبيل الخير والرشاد ، ولذا استقر عزمى منذ خروجى من السجن على الحصول عليه مهما كانت الوسيلة وكيفما التوت بى الطريق إليه ! فلقد اعتاد الناس احترام الأغنياء والانحناء لهم غير ذاكرين طريقة حصولهم على المال ، جاهلين أو متجاهلين ما اقترفوا فى سبيله من خطايا أو ارتكبوا من آثام !»

ثم أخبرنى (سعدون) أن حظه العاثر لازمه بعد خروجه من السجن فكان يطرد من كل عمل يظفر به ، لأنه لا يستطيع الحصول على شهادة (حسن السير والسلوك) تزكيه . وأخيرا انتمى إلى جماعة من الحواة ، وتعلم طرقهم ومرن على اصطياد الزواحف ؛ ولكن هذه المهن لم تدر عليه ربحاً وفيراً يدفع عنه غائلة الجوع ، فعقد النية على الهجرة من هذه البلاد التى لفظته ، فهاجر إلى السودان بصحبة جماعة من تجار الجلود ، وخاصة

جلود الثعابين ، فتعلم منهم أسرار تجارتهم ثم استقل بنفسه وراح يطوى مجاهل أفريقيا وآسيا فى رحلات شاقة مضنية حيث وجد فى الهند وغيرها مغانم أكثر وفرة . وسرعان ما نمت تجارته وعادت عليـــه بالخير الكثير الذى أرى أثارة عليـه . ثم طفق يحدثنى عن مشاهداته فى القارتين وأسهب فى الحديث عن الثعابين المختلفة التى رآها فى الغابات والأحراج لأن حديثها يستهوينى ، وذكر مما ذكر تلك الأفاعى الخضر التى يسميها زنوج أفريقيا آكلة الضفادع ، وهى حيات تغشى المستنقعات وشواطىء الأنهار لتفترس الضفادع وتتغذى بها ، وذكر لى كذلك حيات الشجر التى تمضى النهار مختفية بين الأوراق حتى إذا ما غابت الشمس نشطت فى أثر السحالى تسممها وتبتلعها . وعرج (سعدون) بعد ذلك على الأفعى السوداء المسماة (بالأبطر) فقال لى إنها أخطر الأفاعى فى القارتين على السواء ، ويفزع منها الزنوج رغم قصرها ؛ وهناك أنواع عدة من جنس الناشر منها (ذو النظارة) الذى يروى عنـه الهنود أن الآلـه (بوذا) هبط إلى الأرض فى شكل إنسان ونام فى العراء فجاءه هذا الثعبان ونشر عنقه وأظله من الشمس فجزاه على ذلك أن أمنه من شر المخلوقات جميعاً ، وبعد حين ذهب إليه الثعبان يشكو أضرار الطيور الجارحة به فوهبه تلك النظارة لتميزه عند الطيور . وأسهب (سعدون) فى وصف (الأصلات) الضخمة وختم حديثه (بالحنفش) تلك الأفعى الضخمة التى يستخرج الأهالى سمها الغزير ثم يخلطونه ببعض الأعشاب ويدهنون بالمخلوط أسنة الحراب فلا يفلت من تصيبه من هلاك محقق ؛ وأخبرنى أنه قد اشترى

منهم بعض هذا السم الذى يحتفظ به ...

واستقر المقام بصديقى (سعدون) وهو فى شخصيته الجديدة فلم يعد فى نظر القوم ذلك الطريد المنبوذ ، وإنما هو الآن رجل مبجل موقر يقيم الصلاة ويؤتى الزكاة ويؤدى فرائض الدين ، وأصبحت داره الفسيحة مزاراً لعلية الناس وخاصتهم يفخرون بدعوته لهم ويتشرفون بدعوتهم له ..

ومرت الأيام ... وتزوج (سعدون) من ابنة الشيخ عبد الرحيم التى تنافس الشبان فى نيلها لما كانت عليه من جمال طبيعى لم تمتد إليه يد الصباغ ، أو لما كان عليه أبوها من غنى وجاه ، أو لما ورثته الفتاة عن أمها من ثروة طائلة أو لكل ذلك جمع

وروعنا فى يوم منحوس بنبأ موت الزوجة الشابة . . وشاع فى المدينة أنها ماتت متأثرة بلذعة ثعبان !

وعصف الحزن والألم بقلب الزوج المنكوب فعكف على الخمر يعبها عباً لعله واجد فيها النسيان والسلوى !

وبعد أسابيع زارنى الشيخ عبد الرحيم وأثر مصابه فى ابنته يبين على وجهه ، وأخبرنى أن العلة قد نالت من جسده وقد وصف له أحد الأعراب سم الأفاعى علاجاً لعلته وطلب إلى أن أبيعه بعضاً منه لعل فيه شفاء له ، فبعته ما طلب .

وعاد الرجل إلى زيارتى بعد أيام وقد تحسنت صحته بفضل دوائى العجيب كما ذكر لى ، ودعانى إلى قضاء يوم معه ومع صهره السابق سعدون فى إحدى ضيعاته القريبة من قنا ، ولبينا أنا وصديق الدعوة

فكانت رحلة شائقة فى صباح يوم من أيام الربيع الجميلة الزاهرة ، حتى إذا ما انتصف النهار قدم إلينا من الطعام أشهاه ومن الفاكهة أطيبها ، وراح يكرم صديقى سعدون بكؤوس من الخمر مترعة . .

و بعد أن امتلأت انتحيت جانبا لأريح جسدى وإذا بصرخة تدوى . . . و إذا بسعدون يتلوى كمن مسه مس من الجن . . وإذا بالداعى يقهقه عاليا فى جنون وهو يقول : « ماذا دهاك ياصاح ؟ ما أحسبها إلا لدغة الثعبان الذى لدغ ابنتى وسابقتها من قبل ! . الآن أشرب الكأس التى سقيتها لهما . . أشربها حتى الثمالة أيها المجرم الأثيم ، ودعنى أكشف لك فى آخر لحظاتك عن سرك وإثمك ! . . أتذكر يوم وارينا ابنتى مثواها ؟ لقد سمعت يومها أحد المشيعين يقول لصديق لى فى خفوت وعجب : « أهى عضة الثعبان دائما ! » ولم ألق بالا لما سمعت ولكن عند ما آويت إلى فراشى فى تلك الليلة ترددت العبارة فى سمعى فأقضت مضجعى وأقلقت منامى ، فما أصبح الصباح حتى سعيت إلى مقابلة قائل تلك العبارة الرهيبة ، وعلمت منه إنه قد قضى بالسودان حقبة طويلة وقص على خبر زيجتك الأولى هناك من امرأة غنية ، وكيف قضت هذه المرأة نحبها بعضة ثعبان فآل إليك بموتها الثراء العريض الذى ترفل الآن فى نعمه .... »

وتوقف الرجل برهة ليلتقط أنفاسه ثم استأنف قائلا : « . . . لم أكتف بما سمعت ، بل دسست عليك فى مجلس لهوك سميرا لك ، يحفظ لى جميلا أسديته إليه ، فما زال بك حتى لعبت الخمر بعقلك ذات ليلة فراح يستدرجك

فى حديث السموم حتى زل لسانك وباحت الخمر بسرك ، فذكرت كيف قضيت على زوجتيك البريئتين بحقنهما بسم (الحنفش) فظن الناس أنه الثعبان ولست أنت المجرم ! ورحت تبرر إثمك بشهوتك إلى الثراء الطائل شأن غيرك ممن سلكوا إلى سبيله المسالك الشائنة الملطخة بالجريمة والعار ! فلما تبدل شكى يقيناً بجريمتك ، آليت على نفسى وعاهدتها على أن لا أدعك حتى أذيقك الكأس التى أذقتها ابنتى وأحرمك من مالها الذى أردت أن تنعم به من بعدها ! »

كان (سعدون) يستمع إلى قول الشيخ عبد الرحيم وهو يعوى كالذئب من قسوة الألم الذى يهرأ أحشاءه . دون أن تأخذ الشيخ الثاكل به رحمة ولا شفقة ، بل راح يصب على رأسه لعنته ولعنة الله .

وتماسك المسكين الشقى وتمتم وهو يلهث : « لقد طاردنى الفقر حتى كاد يقتلنى ، فلما بلغت الغنى كان فيما بلغته موتى ! ! » ثم سكتت حركاته وظل الألم مرسوماً على وجهه وراح فى غمرة غيبوبة لم يفق منها .

الانتقام البارد

حدث لى فى عام ١٩٢٠ وأنا فى طريقى إلى فينا أن قال لى الحمال وأنا أهم بالصعود إلى عربة الكسبريس روما — فينا :

« أنك يا سيدى لا تستطيع أن تحتفظ بهذه الحقيبة الكبيرة فى الديوان ، فوزنها أكثر من ثلاثين كيلو و يتحتم عليك شحنها ، وإذا أنت ضاعفت لى الأجر ، أمكننى أن أحمل موظف الشحن على أن يتغاضى عن ثلث الوزن ، كما لو كانت الحقيبة تزن عشرين كيلو فقط ، فتربح بذلك بضع ليرات

أومأت اليه لإيجاب ، وأنا لا أدرى السبب الذى دفعنى إلى استباحة هذا الغش ، ولعل عذرى يومذاك أننى كنت شابا طائشا قليل التجارب

أسر الحمال فى أذن الموظف بعض كلمات وألقى بالحقيبة على الميزان ، وأعطانى قسيمة التخليص على الحقيبة ونقدته المبلغ وحمدت الله على خلاصى من هذا العبء الثقيل ، وأخذت مكانى فى الديوان الذى كان يضم بعض شابات وشبان ، أدركت من حديثهم ولباسهم أنهم جميعاً أصدقاء يسمرون فى غير كلفة ، وأنهم فى طريقهم إلى رحلة شاقة يتسلقون فيها الجبال الشامخة . كان بين هذه الجماعة شاب يتكلم فى حماسة عن الغدر فى الحب ، ويقول فى جرأة أن الخير كل الخير فى التنكيل بمن يعبث بعهود الحب ! وهنا ارتفع صوت إحدى الشابات تندد بهذا الرأى وتقول فى صرامة وحدة : « أنه من الحمق أن يعمد المرء إلى الانتقام ممن خان عهده وما خلق الأنسان الا ليزل ويخطىء ، و يجمل بنا أن

تتسامح وتغفر الزلة ، والزمن كفيل بعد ذلك بدفن الماضي بين طيات النسيان ؛ وعلينا أن نتذكر هذا القول المأثور : حبوا أعداءكم والذين يسيئون إليكم !

وعلى أثر ذلك انبرى لها أحد الشبان وقال في صوت هادىء رزين « وعلى ذكر هذا القول المأثور سأقص عليكم قصة واقعية ! » ثم اعتدل في مكانه وراح يقول : « كان مارتيني وماركو يعملان في أحد مصانع الورق القريبة من روما وكانا صديقين حميمين منذ الطفولة ، ورغم ما فيهما من تباين الخلق فقد خبر كل منهما الآخر ورضي به كما هو ولم يحاول أحد منهما أن يشير إلى ما في صاحبه من نقص أو شذوذ ، وعاشا كما لو كان يكمل أحدهما الآخر ، فلم يفترقا إلا عند النوم ، يذهب كل منهما إلى منزله بعد أن يودع رفيقه بكلمات عذبة تتكرر كل مساء » .

« وكان مارتيني طويل القامة مفتول الساعدين ، في عينيه الواسعتين سخر جذاب وفي صوته رنين حلو ؛ أما ماركو فكان قصير القامة تنم أساريره عن دعة وطيبة كما كان على عكس صديقه ورعا تقيا ، فلما تفوته الصلاة كل أحد في كنيسة القديس بطرس ، ولا يأبه بالملبس الأنيق ، وكثيرا ما كان يعظ ماركو إخوانه في المصنع ويحضهم على الصلاة ويدعوهم إلى عمل الخير والتجاوز عن الأساءة ، ويردد القول المأثور « حبوا أعداءكم » وقد أطلق عليه في المصنع اسم « ماركو الورع » .

تزوج ماركو فتاة يتيمة الأبوين ، فقيرة ، تدعى « إيدا » تعلمت في أحد الأديرة تعليما دينيا حببها إليه ، فشغف بها . وكانت « إيدا »

فتاة غضة فى العشرين من عمرها ذات قوام معتدل ، وشعر فاحم ، وعينين فيهما صفاء ورقة .

لم يغير هذا الزواج من سلوك ماركو نحو صديقه ، فكان مارتينى يقضى معظم وقته مع الزوجين ، يأكل ويخرج الثلاثة للنزهة معا ، حتى أصبحوا مضرب الأمثال وحديث الناس فى الوفاء والأخلاص . وكثيرا ما خرج مارتينى مع الزوجة وحدهما إلى الضواحى أيام الأعياد وتاركين ماركو الورع فى كنيسة القديس بطرس يصلى من أجلهما ، ولم تجد الغيرة سبيلها إلى قلب هذا الرجل الطيب ، ولم يشك لحظة فى أخلاص صديقه وبلغ من طيبته أنه كان يجزل له الشكر على هذا المجهود الذى يبذله فى إسعاد زوجه أثناء غيابه .

وحدث ذات مساء ، والثلاثة ينعمون بشهى الطعام ولذيذ الشراب أن طرق عليهم الباب طارق ودفع إلى « ماركو » ببرقية تستحثه على الأسراع فى السفر ليودع أحد أقاربه الوداع الاخير فاستأذن زوجته وقام من فوره يؤدى هذا الواجب . وتاركا إيدا لعناية صديقه ، وقال لهما أن سفره قد يستغرق أربعة أيام . ولأمر ما عاد الزوج بعد يومين ودخل منزله وفتح باب غرفة النوم وطل برأسه فصعق إذ رأى فراشه يضم « إيدا » وصديقه . ولكنه بدلا من أن يقتحم باب الغرفة ، ضحك ضحكا عاليا ثم أغلقه وفارق المنزل إلى أحد المقاهى وكان يردد فى شبه جنون : « حبو أعداءكم والذين يسيئون إليكم ! » . ثم هدأت ثائرته وعاد أدراجه إلى المنزل فوجد إيدا وحيدة قد علا وجهها شحوب

فقبلها في شوق مصطنع وسألها عن مارتيني وأظهر أسفه لأنه لم يره إلى جانبها ، ولم يشر في حديثه إلى مفاجئته لها في غرفة النوم وطلب أليها أن تصحبه إلى مارتيني وقال لها في صوت رقيق : « قد يكون — المسكين — مريضا وألا فما الذي منعه عن المجيء إليك ؟ »

لم تسمع المسكينة حرفا واحدا من كلام زوجها ، فخرجت معه تتعثر في أثيابها ثم وقفت فجأة وخانتها قواها وحملقت في وجهه وصرخت وكادت تهوى إلى الأرض لولا أن أسندها بذراعه وأجلسها على أحد المقاعد القريبة وأحضر عربة وعاد بها إلى منزله ، ولم تلبث أن أفاقت من ذهولها وأطالت إليه النظر فسألها عما بها ، وكيف تجد نفسها الآن ، وناشدها أن تعود إلى مرحها ، وكرر أسفه لغياب مارتيني فما كان أحوجها إليه الآن ، ليروح عنها بدعابته الطريفة ، وتوسل إليها في رقة وحنان أن يتركها لحظة لاستحضار صديقه وخرج إلى حيث يقيم فوجده منبوذا في سريره شارد اللب ، فارتمى عليه يعانقه ، واستفسره عن سر غيابه وعنفه على أهمال زوجته أبان سفره ، ورجاه أن يسرع معه إلى منزله لأن أيدا في حاجة إلى رعايته .

بهت مارتيني لموقف ماركو ولزم الصمت . فتضرع إليه الزوج أن يذهب معه وألح في الرجاء ، فلم ير مارتيني بدا من الأذعان لمشيئة صديقه مشدوها لا تكاد تحمله ساقاه . ودخل الزوج وصديقه فوجدا إيدا وقد انطرحت على سريرها تجهش بالبكاء ، فقال لها ماركو : أخيرا حضر مارتيني — فمدى إليه يدك وصافحيه وأعدى لنا كما كنت تفعلين

طعام العشاء ولا تنسى أن تقدمى كأسا من النبيذ الفاخر للشرب نخب الصداقة القديمة التى لم تكدر صفاءها شائبة ! » .

قامت إيدا لتعد الطعام . وجلس الزوج مع صديقه ليحدثه عن سفره ، وظل يتكلم طويلا ويبتسم لصديقه ، ويربت على كتفه ؛ أما مارتينى فكان فى دنيا أخرى من أحزانه وآلامه ووخز ضميره وحاول أن يرفه عن نفسه بالبكاء فاستعصى عليه ، ثم انتصب فى حركة عصبية وهم بالفرار وهو يصيح: « إنك تمثل يا رجل ! » فأمسك به الزوج وأجلسه فى مكانه وقال له فى وداعة فائقة : « إنك مريض يا صديقى وخير لك أن تستريح فى فراش إيدا ريثما تعد لنا زوجتى طعام العشاء ! »

ضاق مارتينى ذرعا بهذا التمثيل وود لو يركع أمام هذا الزوج يبلل قدميه بدموعه ويطلب إليه فى خشوع واسترحام أن يغفر زلته . ولكن الزوج لم يمهله ليفعل ذلك وخف إلى زوجته فألفاها تهذى بكلام غير مفهوم .

كرر ماركو هذه المأساة مرات عديدة ، فكان يجمع بينهما ويمثل أو يحاول التمثيل ما شاءت له براعته فى هذا الفن البارع .

سكت الشاب قليلا ثم قال : « وهكذا — أحب ماركو أعداءه والذين يسيئون إليه ، وانتقم عن طريق حبه الألدود ... من حبيبين بعث بهما إلى مستشفى المجاذيب . والغريب فى أمر هذا الرجل أنه ظل يصلى من أجلهما فى الكنيسة ويزورهما أيام الآحاد ! ! ! »

وقف القطار فى أحدى المحطات ، ونزل منه الجماعة ثم واصل السير يخب الأرض ويطوى الهضاب والأودية ، حتى وصل إلى (فينا) ، فذهبت من فورى إلى الجمرك لأتسلم الحقيبة ، وفتحتها ودهشت أيما إندهاش عندما لاحظت أن يداً غريبة قد عبثت بمحتوياتها ، وأن بعض أمتعتى مفقودة ، وطلبت إلى الموظف أن يزنها فقال لى : عشرين كيلو : — فابتسمت فى مرارة وقلت لنفسى لقد ربحت فى روما بضع ليرات لأفقد من أمتعتى ما يساوى جنيهات !

حب فى الخريف

فى صيف سنة ١٩٣٥ هبطت مدينة كارلسباد المشهورة بمياهها المعدنية وحماماتها ، ونزلت فى أحد فنادقها الكبيرة فى غرفة تطل على حدائقها الغناء وميادينها الواسعة ، وكانت تسكن إلى جانبى فى غرفة أخرى ممثلة حسناء فى الثلاثين من عمرها رائعة الجمال : قوام معتدل يستوقف النظر كأنها قطعة من الفن الاغريقى ؛ وكانت إذا سارت تسير فى خطوات رشيقة سريعة لا تلتفت يمنة ولا يسرة فهى تفرط جمالها لا تأبه لما حولها كأنها فى دنيا أخرى من أحلامها .

وقد حاولت التقرب منها والتعرف على أحوالها ، فكانت ترمقنى شذرا وتتجنبنى وتترك الشرفة عندما تشعر بدخولى إليها وتفر من أمامى إلى غرفتها فى حركات عصبية تتمتم كلاماً غريباً لا أفهمه وأحسبها تصب اللعنات على ذلك المخلوق الذى عكر عليها جلسة الصباح الممتعة .

عُجبت لأمر هذه الفتاة فى وحدتها هذه ، وهى لو خرجت من صومعتها لوجدت معجبين كثيرين يتغنون بجمالها الساحر ويسمعونها كلمات الحب فى شعر ونثر ، وكنت أنا الآخر وحيدا مثلها فى هذا البلد ، لا يؤنسنى فى وحشتى صديق ، وعجبت لهذه الوحدة التى لا تجمع بين قلبينا ، ودهشت لما تبديه من جفوة كلما نظرت إليها .

لم أعد أضايقها بعد ذلك ، وانتقلت إلى غرفة أخرى فى الطابق العلوى وتبدلت أساليب حياتى ، وخرجت من وحدتى إلى الناس أتعرف إليهم

وألهو معهم واتصلت بيني وبين صاحب الفندق أسباب المودة ، فسألته يوماً عن أمر تلك الحسناء وعن سر كرهها لى ... فأجابنى : « إنها من أسرة عريقة وأنها أحبت هذه المدينة لتصطاف فيها كل عام . وهى طيبة القلب رقيقة المشاعر ، رغم ما فى خلقها من حدة ، وهى مولعة بدرس الأدب الشرقى وما يتصل به من عادات وتقاليد ، وقد قرأت فى ذلك رباعيات الخيام وألف ليلة وليلة وغيرها ، وسافرت غير مرة إلى الشرق وضربت خيامها فى صحرائه ونعمت بما فى هذا الجمال من خيال بديع ؛ أما سر كرهها لك فلأنك تشبهه ... »

« أشبه من ... ؟ »

« تشبه ذلك الذى أحبته يوماً الحب كله ، وعاشت معه فى حلم لم يتحقق ... »

فقاطعته قائلا :

« أظن أنها كانت تسر للقائى لتجدد تلك الذكرى الحبيبة إلى فؤادها ؟ »

فأجاب : « إنها عانت تجربة قاسية ! » وطفق يسرد على قصتها :

« نزل هذا الفندق فى صيف العام المنصرم رجل شرقى فى زى أهل المغرب لم يتخط العقد الرابع من عمره ، طويل القامة يضرب لون وجهه إلى السمرة ، فى عينيه بريق وسحر . وكان الرجل قليل الكلام يجيد لغات عدة ، ويخرج فى الصباح يتنزه فى الحدائق المجاورة فتصوب اليه المارة نظرات غريبة متسائلة ، ويتقدم إليه بعض الناس يسأله عن جنسيته

و بلده ، فلم يكن ليجيب على هذا إلا بابتسامة رقيقة ثم يوسع الخطى عائدا إلى غرفته حيث ينكب على مطالعة الصحف » .

« كثر كلام المصطافين حول هذا الرجل وألح على كثيرون أن أقدمه إليهم ومن بينهم صاحبتك هذه ؛ وقد حسبت أن الشرق بمحاسنه و بهجته وسحره قد انتقل إليها فهى منه على موعد فى هذه المدينة ، وشغفت أيما شغف بهذا الزائر الكريم الذى كان يحمل بين جنبه قلبا فيه حرارة تلك الشمس الفتية التى عرفتها فى أسفارها . وكانت كلما جمعت بينهما ازداد حبها له رغم حديثه القصير الجاف وصلفه وكبريائه . على أنى أخاله يخفى بين ضلوعه هما دفينا تستشعره فى نبرات صوته وتتلمسه فى جبينه المقطب وتحسه فى نظراته الشاردة . كانت تمتلج فى صدر هذا الرجل عناصر الشر من قسوة وحقد وحسد يضمرها للناس جميعاً فهو بينهم كالموتور يود لو يثأر لنفسه منهم ؛ فهو إذا تكلم عن الناس رماهم بالظلم وندد بمساوئهم وعدد مثالبهم ، ولعله قاسى فى حياته محنا حطمت القلب وطوحت بآماله فى الحياة ...! »

« وحدث أن سألته الفتاة عن وجومه وحزنه فأجابها بأنه سر يحتفظ به لنفسه ؛ ثم سألته مرة أخرى عن زواجه وحبه لتستوضح منه ما خفى عليها من عواطفه ، فكان رده عليها أنه لم يتزوج ولكنه يعرف الحب فتهللت أسارير وجهها وهمت بتقبيله ، وحسبت أنها ظافرة منه بعد هذا الصبر الطويل بكلمتى الحب والزواج ؛ ولكنه لم يمهلها التسأله سؤالها الأخير وقال فى مرارة : « لقد أحببت الحياة أيام طفولتى ! » فدهشت لأجابته

ولم تفهم من ذلك حرفا . وكثيراً ما كانت تراسله وهى معه فى الفندق إذ كانت لا تجرؤ بعد ذلك على سؤاله وهى فى مجلسه ، فكانت تتحدث إليه فى رسائلها عن الحب والزواج ، وعن البيت عش المرأة وما ينتظرها فيه من هناء ونعيم . . . كانت تتحدث عن ذلك كله وتكشف له عن حبها له وحنينها إليه فى لهجة عذبة ؛ ولكن المسكينة لم تكن لتتلقى ردا على هذه الرسائل ، ولم يكن يشعرها بشىء من هذا عند مقابلتها . . . »

« كتمت حبها له ما شاء لها الكتمان ، وعمدت إلى أثارة حبيبها بالغيرة ليفتح لها قلبه ويبادلها حبا بحب ، ذهبت كل هذه المحاولات هباء فلم تكن لتقوى على فتح مغاليق هذا القلب الجبار .

ضاق الرجل ذرعا بحبها ، ورغب عنها ولزم غرفته ، وراحت الفتاة تذرف الدمع سخينا وحيدة ، وتأثرت أعصابها لكثرة ما عانته من ألم . وصارت تهتاج لغير ما سبب وتصرخ غير حافلة بتقولات نزلاء الفندق » .

نمى إليها خبر اعتزامه السفر بعد يومين ، فنفد صبرها وأصرت على مقابلته للمرة الأخيرة ؛ فاقتحمت عليه باب غرفته ، وتوسلت إليه أن يأخذها معه إلى بلده لتعيش إلى جانبه ، يبنيان وكر الحب وينعمان بالزواج ثم ركعت أمامه ، وأذلت كبرياء المرأة وهو واقف كالتمثال ؛ ثم استشاط غضبا وأشار اليها فى قحة أن تبرح هذا المكان فأخذ منها الغضب كل مأخذ ، وثارت ثائرتها وهددته بأنها ستملأ عليه الجو صياحا وتطلب النجدة ، وأنذرته بأنها ستدعى عليه أنه حاول اغتصابها ، وفى ذلك ما فيه من عقاب . . . ظل الرجل جامدا فى مكانه ولم يحر جوابا

ودفعها بيديه فتعلقت به وانهالت عليه ضربا ، وصرخت ، فهرع إليها الناس وأدعت عليه ما ادعت... وحضرت فيمن حضر من القوم ، الذين كالوا له الشتائم ، وصبوا عليه جام غضبهم ، وأخيرا تكلم الرجل ورجا أن يخلو بى دقيقة واحدة ، وأخرج إلى (الباسبور) وأرانيه ، فهرولت من غرفته مسرعا وأنا أضحك عاليا كالمجانين وشيعت القوم ومن بينهم الفتاة بنظرات السخرية !!! »

ثم سكت الرجل قليلا وقال : « لقد قرأت فى (الباسبور) أمام الوظيفة : « باش أغا سلطان مراكش !!.. »

ثم نظر إلى طويلا فى خبث وقال : « أظن يا سيدى أن أعصابها لا تتحمل هذه التجربة مرة أخرى ! فقد أحبت هذه المسكينة فى الخريف وهى لما تزل فى ربيع حياتها ! » وتركنى وانصرف وأنا كالمشدوه — وسمعت ضحكاته العالية فأسرعت فى أثره وأمسكت به وصحت فى وجهه : « أنا باشمهندس !! »

المنتظرة

كان قد مضى على آخر مقابلة لى مع هدى أكثر من عشر سنوات . كنت فى خلالها أتم دراستى فى أحدى جامعات أوروبا ، ثم تزوجت هناك وعدت مع زوجتى النمساوية إلى مصر والتحقت مدرسا بالجامعة وشاء سوء طالعى أن أفقد زوجتى العزيزة إثر مرض قضى عليها وخلف لى الهم والحزن . وكان أن قابلت هدى بعد هذه المدة الطويلة وأنا أقطع أحد شوارع القاهرة ، فاستوقفتني ومدت لى يدها مسلمة وكدت لا أعرفها فقد تغيرت كثيرا لولا أن نبرات صوتها الحلو ظلت كما كانت أيام عرفتها . كان فرحى عظيما بلقاء هدى ومرت أمام نظرى صور الماضى سراعا متلاحقة وتراءى لى منزلنا القديم الذى كان يقوم بجوار منزلها فى حى الحلمية القديم . كنا حينذاك طفلين صغيرين لا نكاد نفترق طوال يومنا إلا فى فترات الطعام . وكان أن أشتد عودى وأدخلت المدرسة واشتد عودها كذلك والتحقت هى الأخرى بمدرسة فى حى بعيد . وكان على أن انتظر سيارة المدرسة وهى تعود بهدى فأهرع إليها وهى فى ثوبها الأزرق القصير وقد شدت محفظة كتبها على كتفيها ووقفت فى قامتها الرشيقة تبسم لى فى طهر وتصعد إلى منزلها وتجلس إلى جانب النافذة تستعيد دروسها وكنت أجلس أنا الآخر قبالتها إلى نافذتى أخالسها النظر — ذكرت كل هذا وذكرت كذلك كيف كنا نختلف إلى الحدائق فى أيام الجمع والأعياد نلهو ونتمتع بما حولنا فى

براءة وسذاجة . ثم فرق بيننا الدهر ولما يكاشف أحدنا الآخر بعواطفه أو يعاهده على قسم . وارتحلت إلى بلاد الغرب وها هى ذا هدى أمامى الآن فى أحد شوارع القاهرة تعيد على سمعى ذكريات الماضى الحبيبة إلى نفسينا . ودهشت عندما حدثتنى عن موت زوجتى وعن أشياء أخرى ثم قالت لى :

« وها أنت ذا ترى أننى أصبحت امرأة ثرثارة و . . . »

ولكنى قاطعتها وقلت لها :

« وكيف حال أختيك ؟ »

غير أنها واصلت حديثها عن الماضى فلم تجب على سؤالى ولم أشأ أنا من جانبى أن أعيد عليها هذا السؤال ومضت تتحدث عن منزلها الريفى الجميل فى ضواحى القاهرة .

وقالت وفى صوتها رنة ألم :

« ما أظنك يا صديق الطفولة تضن على ثلاث أخوات وحيدات ومعهن أم عجوز بزيارة! » وفى الحق أننى رحبت بهذه الدعوة وسررت لها.

زرت هدى فى منزلها الريفى وطفت معها فى أرجائه . ، وشاهدت فيما شاهدت ثلاث غرف بيض كأنها أعدت لثلاث عذارى . وقد أدهشنى ما رأيت على جدرها من صور كثيرة لرجال لم أعرفهم ولا أذكر أننى رأيت بين هذه الصور صورة واحدة لامرأة حتى ولا صورة صاحبة الغرفة نفسها . ودهشت كذلك لرائحة التبغ التى تملأ جو هذا المكان ورأيت الدخان يتصاعد من لفافة تحترق فى محارة جميلة . على أننى لم أر أحداً فى

هذا المنزل غير هدى التى قالت لى ولعلها لحظت حيرتى :

« لا تعجب يا عزيزى فأنى أنما أشعل هذه اللفافة وأدعها هكذا لاستشعر وجود مخلوق معى فى هـــذا المنزل ولأدفع بها هذه الوحدة المضنية . و . . »

ولم أدعها تتم حديثها بل قلت لها على الفور .

« أحسبنى سأسعد بلقاء أمك وأختيك ؟»

فقالت :

« لقد فاتنى أن أخبرك أنهن ذهبن فى زيارة قصيرة» وأشارت بيدها إلى الدخان المتصاعد من اللفافة التى كادت نارها تخبو . على أن هدى عجلت وأشعلت لفافة أخرى ووضعتها فى المحارة تبعت هدى إلى الشرفة وجلست إلى مائدة الشاى وطفقت تقدم لى بعض الكعك وأنا غارق فى تفكير عميق . أنظر تارة إلى الورود البيض التى تزين هذه المائدة وإلى هذا السور العالى الذى يشبه أسوار الحصون القديمة ولا يستطيع ناظرى أن يكشف ما وراءه . وفى الحق أنى لم أسعد فى هذه الزيارة فقد ألم بى حزن لا أعرف مصدره . . . انتهينا من تناول الشاى فقدمت لهدى لفافة تبغ وقلت لها :

« ما أحسبك ترفضين هذه اللفافة بعد كل ما رأيت !»

وأشعلت لها اللفافة ورحت وأياها نرقب هذا الدخان المتصاعد ثم ما عتمت أن سألتها عن هذا السور العالى وقلت لها :

« أنى أعجب أن يظل مثل هذا البناء حتى وقتنا هذا ، ينطق بالظلم

الذى لقيته المرأة فى العصور السالفة ! وها أنت ذا ترين يا عزيزتى أننى أجلس وأياك لا يفصل بيننا سور ولا تقام بيننا حجب . وها أنا ذا أراك سافرة تقابلين من تشائين من عباد الله فى غير ما خوف ولا خجل ! »

ثم أمسكت عن الكلام وساد السكون برهة . ولكن هدى لم تلبث أن قالت :

« قد يكون فى قصة هذا السور ما يزيد فى ألمك ! ولكنك أن قبلت قصصتها عليك ! » وراحت من فورها تسرد على قصة السور بعد أن لمست أنى جد مشوق إلى هذا الحديث قالت :

« عاش على بك التركى فى قصر لا زالت آثاره ترى قائمة هنا وهناك فوق أرض واسعة يحجبها عنا هذا السور . وكان الرجل عريض الجاه نافذ الكلمة واسع السلطان . وكان قصره قطعة من الجنة ، جمع كل أسباب النعيم : تحوطه الحدائق الغناء بأشجارها الباسقة وأزهارها اليانعة وتنساب بينها الجداول بمائها النمير الرقراق ، ويعدو هنا وهناك ظبى شارد وتنتقل الأطيار من فنن إلى فنن ، وترسل من فوق الأغصان تغريدها الحلو يملأ أطباق السماء بألحان الغزل والحب والحنين ؛ وتطير الفراشات بألوانها الزاهية مع النحل بين الأزهار تلقنها حديث الحب فتبعث البهجة والسرور فى هذا الفضاء الذى يعج بشتى أنواع الحياة ... »

« كان القصر عامراً بكل صنوف المسرات والترف ، فقد جهز بالأثاث الوثير وتدلت من سقفه الثريات الفخمة وزينت جدرانه بالسيوف القديمة ، وعلقت ألواح لصور الأجداد »

« عاش الرجل مع زوجه و بناته الثلاث فى هذا النعيم و فيا ساهرا على هذا العش يحوطه بعنايته . أما زوجته فكانت من هذا الطراز النهم اللعوب الذى لا يكتفى برجل واحد . . . داهية تظهر غير ما تبطن فقد استطاعت أن تخفى نزواتها و عبثها عن زوجها طوال هذه المدة بما كانت تحبوه به من حب زائف ووفاء كاذب . ولكن لم يلبث أن افتضح أمرها فى القصر و تهامس الخدم فيما بينهم وتناقلوا مغامراتها مع البستانى ولم يجسر أحد منهم على الإفضاء بشىء من هذا إلى سيدهم ؛ و حتى الأغوات ، وهم الحراس والجواسيس على النساء ، لم يجسروا هم الآخرون على إفشاء مسلك هذه لمرأة الشائن و لعلهم وقد حرموا متع الحياة و حلت بهم النقمة من نفر من الناس جعلوا منهم أشباه رجال ، ناقمون لا يهمهم أن يقوموا حراساً على أشياء لا يعرفونها و لا يحسونها ! »

« طفقت المرأة تلهو و الزوج يغمرها بحبه، وشاء ربك أن لا يدوم هذا طويلا فقد سافر الزوج لبعض شأنه و حسبت الزوجة أن الجو خلا لها مع عشيقها البستانى وأحضرت ما لذ وطاب من طعام وشراب فى مخدعها ، تتمرغ مع حبيبها فى حمأة الرذيلة . . . ولأمر ما عاد الزوج من رحلته على عجل وأحسا به ولكن الزوج فاجأهما قبل أن يفكرا فى الخلاص من هذا المأزق . على أن العشيق قد تمكن من الفرار بأن قفز من النافذة التى لم تكن تبعد كثيراً عن الأرض ، و تبعه الزوج ولكنه تعثر ببعض جزوع الأشجار و سقط على الأرض فى ظلام الليل.

الحالك . ونجا العاشق بحياته إذ لم يستطع الزوج اللحاق به »

«استند الزوج إلى أحد الأشجار وأفاق إلى نفسه وراح هواء الليل البارد ينعشه وشرع يستعيد ما فقده من وعى وتفكير ومضى يفكر فى هذه الزوجة التى خانته وراح يقول لنفسه « مالى وهذا الرجل ! فلعل هذه المرأة قد غررت به وبذلت له المال وهو فقير ورب أسرة كبيرة ! » — وتحامل الرجل على نفسة وعاد أدراجه إلى حيث هذه الزوجة ، فإذا مخدعها يموج بالخدم والأغوات وإذا بها طريحة الفراش تتلوى وتئن . فصرف الجميع بأشارة من يده فخرجوا وأغلق وراءهم الباب وأسرع إليها فوجد إلى جانبها زجاجة فارغة ، فأمسك بالزجاجة ووضحت له الحقيقة فقد شربت السم وها هى تجود بأنفاسها الأخيرة رفعت رأسها متثاقلة وقالت له : « هل ظفرت به وقتلته ؟ . . إنه مسكين أنا التى غررت به ! » ثم عاودها الأنين . ورمقها الزوج بنظرات كلها حقد وقال لها : « أجل لقد لحقت به وقتلته وها أنت تهتمين بأمر هذا الرجل حتى فى ساعتك الأخيرة . وما أظنك تطلبين إلا أن أغفر له زلته ! أجل لقد قتلته وكنت أريد أن ألحقك به ياشقية لولا أنك سبقتنى إلى قتل نفسك ، فاذهبى إلى الشيطان! » وأطرقت المرأة مليا ثم قالت فى صوت رهيب كأنها تنتقم لعشيقها « إنك قتلت والد إحدى بناتك الثلاث » وجن جنون الرجل وصرخ قائلا : « أيهن يا أم الشيطان ؟ تكلمى يا خائنة ! » ولكنه لم يسمع جوابا وساد جو المكان صمت عجيب . وكانت هذه الجملة آخر

ما نطقت . ولفظت أنفاسها تشيعها لعنة هذا الزوج المسكين »

« كانت لهذه الصدمة أثرها العميق فى قلب هذا الرجل ، فانتزعت منه الحب الأبوى وبدلته سخائم وضغائن وجعلته يحقد على الناس جميعا ويضمر لهم الشر وظل يرن فى أذنه صدى جملة زوجة . وفكر فيها طويلا . وكان لا يطيق النظر إلى وجوه أطفاله الصغار ولكنه رغم ذلك كان يتوق إلى أن يكشف عن ثمرة جريمة زوجه فينظر إليهن خلسة ليفحصهن الواحدة تلو الأخرى لعله يعثر على ابنة العشيق ؛ ولكنه لم يظفر بها »

« عانى الرجل ماعانى من عذاب وضاق بالحياة ذرعا ولم يدر مايفعل فقد أثقل الهم كاهله — وأخيرا أعمل فكره واهتدى إلى طريقة ينتقم بها من أطفاله فى شخص زوجته فأوقف جميع أملاكه على بناته الثلاث واشترط ألا تبرحن القصر وألا يتزوجن طول حياتهن . وصرف الرجل خدم القصر بعد أن كافأهم واستبدلهم بمربية عجوز ،وأقام حول القصر هذا السور الذى تراه اليوم ، ثم رحل عن هذا البلد إلى (الآستانة) للأقامة بها — أما البنات الثلاث فقد عشن فى هـــذا القصر كما تعيش الراهبات سجينات لم يقع بصرهن على رجل منذ رحيل الأب .وقد عنيت المربية العجوز بتثقيفهن وكن رغم ذلك ساذجات يسألنها أسئلة غريبة عن الرجل والحب وكل ما يتصل بالحياة فتحار المسكينة ولا تدرى بم تجيب ! وكثيرا ما راقبن الطير وهو يبني عشه ويضع بيضه ويحتضن صغاره وهن لا يدركن من كل هذا شيئا ! »

ماتت المربية العجوز وقامت كبرى البنات برعاية أختيها ، وماتت هى الأخرى بعد أن ناهزت الخمسين ثم تبعتها الصغيرة فى ميعة الصبا وظلت الأخيرة تعانى مرارة الوحدة إلى أن وافتها المنية وقد أربت على السبعين . .

سكتت هدى وملأ جو الغرفة نغم حزين عزفت فيه موسيقى ذلك الفنان التعس (تشيكوفسكى) وقد حملها الأثير من المنزل المجاور لنا . وكان فى هذا النغم أنين وحنين ؛ وكأنى به وهو ينسل فى جو الشرفة يحمل بين أمواجه نفوساً معذبة وأرواحاً مشردة ، وكأنى بهذا النغم يوحى إلى النفوس بأحاسيس غريبة من الحياة فيها ملل ويأس وصخب وتمرد وتوبة وتكفير ، وصلاة حزينة . وما أن انتهت هذه الموسيقى الساحرة حتى خرجت هدى عن صمتها وقالت وفى صوتها أسى وشجن وكأنها ترسل بين كل حرف وحرف دمعة سخينة .

« قد يكون الرجل قسا وأمعن فى قسوته على هؤلاء الأبرياء ، ولكنه لم يكن ليفعل غير هذا . فقد صدر انتقامه عن محض جنون وهل هو وحده الذى قسا فى هذه الدنيا التى تزخر بالظلم ! أو ليست هناك عذارى عشن كالراهبات ولم تقم حولهن أسوار !!! ؟

وترقرق الدمع فى عينى هدى ، وفكرت أنا فى الغرف البيض الثلاث التى زينت جدرانها بصور رجال لم أعرفهم ، وفى الدخان المتصاعد

من لفافات التبغ المحترقة وعرفت فى كل هذا حنين المرأة إلى الرجل ، وإلى العش ، وإلى الأطفال .

وعادت صور الماضى تمر أمام نظرى سراعا متلاحقة . وألهبت الذكرى فى قلبى عاطفة كانت كامنة . وها قد مرت الأعوام وأنا أرى أطفالى الصغار يمرحون حول أمهم الحنون هدى .

obeikandl.com

الاعتراف

قال القاضى فى تأثر عميق : « أما آن لك أن تخرجى عن صمتك يا مرجريت ؟ فكرى فى وحيدتك وما قد يصيبها بعدك من نكبات.. ان هذه الطفلة فى حاجة إلى عناية الأم وعطفها ! . »

اعتدل المحلفون فى مقاعدهم وساد قاعة المحكمة سكون رهيب بدده وقع أقدام طفلة دفع بها الحاجب إلى داخل القاعة ... أفاقت مرجريت من غشيتها وهرعت إلى الطفلة وحملتها بين ذراعيها وانهالت عليها تقبلها فى حرارة ، وأجهشت بالبكاء ، ثم أسلمت الطفلة بعد ذلك إلى الحاجب وقالت : « سأتكلم من أجل هذه البريئة : نشأت فى بيت خالتى ولا أعرف لى أماً سواها ، وقد غمرتنى بحبها وعانت الكثير من شظف الحياة وكابدت وعالجت شتى المهن لتوفر لى سبل العيش الرغيد ، فأجرت أحدى غرف منزلها لشاب فنان لنزيد فى دخلنا الصغير ، وأنس الينا هذا الشاب وتوثقت بيننا و بينه مودة خالصة . وكثيرا ما ضحى وقتر على نفسه ليساهم مع خالتى فى إسعادى . وصادف أن زار خالتى رجل ناهز الخمسين تربطه بها صداقة قديمة ، وقد عاد من أمريكا بعدأن أثرى وكان الرجل أنيقا فى ملبسه ، تنم أساريره وجهه عن قسوة بالغة ، يكره الفنون و يعتقد أن أصحابها كسالى ، فهو من طراز الناس الذين يعبدون المال و يجمعونه بشتى الطرق . وكثر تردد هذا الرجل على منزلنا وأخيراً

وضحت نياته فقد كان يرغب فى الزواج منى ، وصادفت هذه الرغبة هوى فى نفس خالتى ، فألحت على وألحفت ، وقاومت ما شاءت المقاومة ، وأخيراً رضيت به زوجا على كره منى ونزلت بذلك على أرادة خالتى ، لقاء ما لاقت فى سبيلى من عناء ونصب . وقد هيأ لى زوجى كل أسباب العيش وأغدق على من النعيم والهدايا الشىء الكثير ولم أكن أشكو إلا من غيرته الجامحة إذ لا يفتر يندد بهذا الشاب الفنان ويسىء بذلك إلى سمعتى فى كلام جارح .

مرض صديقى الفنان مرضا خطيراً ، وكان لزاما أن أعوده وأسرى عنه وأساعده ببعض المال فأرد بذلك بعض ما طوقنا به من صنيع . وصارحت زوجى بذلك فازدادت معاملته لى سوءا وتجهم لى وطفق يرمينى بأقبح السباب . . . مات صديقى الفنان فحزنت عليه وبكيته ولم أشأ إظهار حزنى مخافة أن يستحيل زوجى وحشا ضاريا يفتك بى ... وفجأة تبدلت معاملته لى وغدا لطيفا وسيما ورجانى ذات مرة أن أسافر إلى أحد المصايف لأروح عن نفسى ، واعتذر من عدم إمكانه مصاحبتى لكثرة أشغاله . وتمنى لى سفراً سعيدا وودعنى خير وداع .

وكان المصيف غاصا بالناس يموج بهم الشاطىء ولفت نظرى وجود شاب اعتاد أن يجلس كل صباح الى لوحة الرسم وقد أرسل شعره على كتفه وكان هذا الشاب جميل الطلعة ممشوق القوام فى عينيه براءة الأطفال . وقد دفعنى الفضول إلى التقرب منه والتحدث إليه ، فرأيت اللوحة عاطل من كل رسم وسألته عن سر ذلك فابتسم وأشار إلى البحر ... فكرت

فى هذا الشاب طويلا وجعلت أغالب مشاعرى وأقاوم هذا التفكير فلم أقو على ذلك وصرت أقابله كل صباح ومساء . وحدث ذات مرة أن تقدم إلى الشاب وكنت وحدى وقد بدا على وجهه حزن شديد ، ودهشت عندما جثا على الأرض يقبل قدمى ويبللهما بدموعه ويتوسل إلى أن أغفر له نذالته ! ثم انتصب واقفاً وأنا لا أفهم شيئا من هذا وصارحنى أنه لم يرسم فى حياته خطا واحداً وهو موفد من قبل زوجها ليوقعها فى شباك غرامه ، ويسهل لهذا الزوج عملية الطلاق منها وقد استعان على ذلك بتمثيل دور الفنان الذى أحبها ، ولكنه بدلا من استدراجها إلى شباكه ، إذ به يقع فى غرامها ، — ثم تضرع إليها ألا تحتقره ، وقد أغراه زوجها بالمال الوفير ووعده أضعاف ذلك عند إتمام الصفقة .

مرت بخاطرى شناعة هذا الموقف الذى وقفه منى هذا الزوج وأدركت سر هذا التغيير الأخير نحوى ، وحملقت فى وجه الشاب وتجلى الصدق فى عينيه الواسعتين . ثم سألته عما اعتزمه بعد ذلك فأجاب بأنه سيفر من هذا المكان ويحاول التكفير عن زلته ، ورجانى أن أتقبل توبته ! اشتد مقتى لهذا الزوج ووددت لو أنه أمامى أركله بقدمى وأصفعه وانحنيت على الشاب أقبله وقلت له فى وله : « أصادق أنت فيما تقول ؟ » فكان جوابه قبلات ودموع ...

لم أعد أحفل بعد ذلك بالناس وأخذت أظهر مع هذا الشاب فى كل مجتمع ، نرتاد المراقص والمشارب ونلهو ونلعب ، وذات مساء طلب منى

أن نتناول العشاء فى غرفته وأحضر فى هذه الليلة مالذ وطاب من صنوف الطعام والشراب وأسرفت أنا فى احتساء الشمبانيا وارتميت فى أحضانه يقبلنى وأقبله ؛ وفجأة فتح باب الغرفة وأطلت منه ثلاثة رؤوس تبينت فى إحداها وجه زوجى وقد ظهرت عليه ابتسامة صفراء ثم غابت هذه الرؤوس الثلاثة وأقفل الباب وقام الشاب وقال فى وداعة مصطنعة وداعاً يامرجريت وهم بتقبيلى فدفعته عنى ، فقال : «يعز على أن أذهب دون أن أقبلك للمرة الأخيرة ، ولكنى على موعد مع زوجك لأقبض منه بقية الأتعاب وأبحث عن أزواج آخرين !» صعد الدم الى رأسى واختطفت منه مسدسه وهددته بالقتل إذا هو فارق الغرفة فكشف لى صدره وقال : « أطلق على رصاصاتك إذا كان فى مقدورك هذا ! إنك لاتقتلين ذبابة» ثم ضحك فى تهكم وأردف قائلا : «ألا ترين يامرجريت أننى أمثل دورى أحسن تمثيل ؟» وهم بالخروج . فثارت ثائرتى وغدوت كالمجنونة لا أعى شيئا وأطلقت عليه الرصاص فهوى على الأرض صريعاً مدرجاً بدمه وقال فى صوت خافت : « لم أكن أحسب أنى سأموت يوماً ما بيد امرأة ! فإلى الشيطان ! »

سكتت مرجريت و بدا التأثر العميق فى وجوه النظارة . وتداول المحلفون الرأى فيما بينهم وتلت ذلك فترة سكون وقف على أثرها القاضى وقال : « لقد عانيت كثيراً أيتها البائسة ، فعودى إلى طفلتك ! »

الجثة الحية

... قال صديق رضوان : « سأقص عليكم الليلة قصة اقتبستها من أدب الغرب وأسميتها (الجثة الحية) » وما كاد يبدأ حديثه حتى انبرى له أحد الرفاق وقد اشتهر بيننا بالعناد والمشاكسة وصاح فينا قائلا : « دعونا أيها السادة من هذه الفواجع ، وتعالوا أحدثكم عن قصة فيها مغامرة وتسلية . وقد اخترت لها اسم (موقف حرج) — ولم يعبأ رضوان بهذه المقاطعة ، واندفع يقول في غير مقدمة :

« جلس تلسكي في أحد مقاهي بودابست المتواضعة يحتسي كأساً من النبيذ ، وجلس رجل قبالته يطيل النظر إليه في جرأة ، ثم مالبث أن تقدم إلى تلسكي وقال : « هيهات أن تخونني ذاكرتي رغم تنكرك في هذه الثياب الغريبة ... قل لي بربك هل أنا في حلم لقد حسبناك مع الموتى منذ أن نعتك الصحف وقرأنا خبر انتحارك بعد أن عثر على ملابسك عند شاطيء نهر الدانوب وفيها خطاب توصي فيه بأن يتزوج صديقك فرانس بعد موتك من امرأتك سونيا ، التي حزنت لفقدك حزنا يكاد يودي بحياتها . وأخيرا ، و بعد تردد طويل رأت سونيا أن تحقق رغبة راحل عزيز ، فنزلت على إرادتك وإلحاح الأهل ، فقبلت الزواج من فرانس بعد أن رفضت يده مراراً قبيل زفافها إليك ، وهي تعلم أنه جد شغوف بها ، ولم تكن المسكينة لتأبه بحبه فقد أعماها حبها لك . . . والآن ألا ترى أنك اقترفت خطيئة

obeikandi.com

يحرمها الله وتأباها عليك الكنيسة ...؟ فقد دفعت بحماقتك هذه بريئين إلى زواج محرم ملعون ! »

بغت تلكى لهذه المفاجأة التى لم يكن ينتظرها بعد أن هجر بلدته وانضم الى عشيرة الغجر يقاسمهم عيشهم ويلبس لباسهم ، وقد أحب من بينهم فتاة حسناء يقال لها ساشا وهام بها . واتخذها عشيقة وأغدق عليها وعلى أهل قبيلتها مالا وفيراً أسكت به فضولهم .

وأدرك تلكى حرج موقفه ، وساورته المخاوف ، وخشى أن يفضح الرجل أمره ويشى به ، وهو يعرف أن طلاقه من سونيا مستحيل ، فقد حاول أكثر من مرة وباء بالفشل لأن الزواج فى عرف الكنيسة رباط مقدس ، لاتنفصم عراه إلا بالموت . وقد أحب ساشا وأخلص لها وتنكر لزوجته وبرم بالعيش معها تحت سقف واحد . وهجر بيته الى حيث توجد هذه الغجرية الحسناء يراقصها ويشاطرها حياة اللهو وكثيراً ما سعى إليه (فرانس) يبذل له النصح ويستعطفه حيناً ويقسو عليه حيناً آخر عساه يثوب الى رشده ويعود الى زوجه ! ولم يكن ليجيب على هذه التوسلات إلا بترديد بعض أغانى الغجر المبتذلة ، ثم يغاوده هدوءه ويقول لصديقه أنه ليس جديراً بحب سونيا الطاهر وأن فرانس أصلح لها منه ، فهو يفضله فى كثير من صفات الزوج الصالح .

عاودت تلكى ذكريات عدة فراح ينشر صحائف ماضيه مع زوجته التعسة ، ويردد بينه وبين نفسه ما كان يقول لها وهى فتاة غرة :

« نحن يا سونيا أنصاف أشباح ضالة تهيم على غير هـــدى فوق هذا الكوكب ولا نفتأ نتخبط ونتعثر حتى يظفر كل شق بشقه فلا يعود يهيم لأنه اكتمل » — أما الفتاة فكانت تجيبه فى براءة الأطفال بأنها عثرت على نصفها المفقود ، وهى جدة سعيدة لهذا . . . ثم تنظر إليه فى رجاء واستعطاف وتقول : « أما آن لك يا تلكى أن تعثر على نصفك الآخر فلا تعود تهيم وتكتمل ! » . أما تلكى المسكين فلم يكن يحير جواباً على هذا السؤال البرىء الذى يطفح بالحب له والذى صدر عن عاطفة جامحة كثيراً ما تأخذ بمشاعر الفتيات فى مثل هذه السن الصغيرة .

كانت سونيا تحب تلكى حقا ، ولم يكن يبادلها هذا الحب ، فقد كان من هذا الطراز من الناس الذين خلقوا لأنفسهم ، لا يريدون من الحياة إلا حلوها ، فقد نشأ تلكى غنيا ، لم يعرف شظف العيش ولم يعان مر الحياة ؛ وما له يتحمل فى حياته السعيدة تبعات جسام ما كان أغناه عنها وما له وهذه الحياة المملة فى ظل زوجة وأطفال ، وهو بوهيمى بطبعه يبحث عن العرض الرخيص والهوى .

ولا يزال يهيم على وجهه نصف شبح ضال فوق هـذا الكوكب يتخبط ويتعثر بين أشواك وأزهار ويظل كذلك يهيم حتى تفنى زهرة شبابه الغض فهو لا يريد أن يكتمل . وفكر الفتى فى صديقه الطيب القلب فرانس الذى كان يطوى فى قلبه الكبير حبا دفينا لسونيا وما كان له أن يبوح به لها وهو يراها تهيم بتلكى ، ولعله هو الآخر نصف شبح ضال يضرب فى الأرض على غير هدى ! وها هو ذا كلما اقترب

من شقه الآخر سونيا فر منه هذا الشق ولاذ بشق آخر حسبه نصفه المفقود ولكن سرعان ما تتبدد أحلامها فهو لم يعثر إلا على تعس منكود يتخبط ويتعثر بين أشواك وأزهار لأنه لا يريد أن يكتمل . وها هي ذي أنصاف الأشباح قلما تتلاقى وقد تحسب أنها وفقت إلى إنصافها ، فترتبط معها بروابط من نفاق وخذل في غمرة من غمرات الحياة ثم تصحو من غفوتها وتحاول أن تتخلص من إسارها وتهيم مرة أخرى إنصاف أشباح ضالة . ولكن الكنيسة تأبى عليها ذلك . .

ظل تلكي يفكر ويفكر حتى أعياه التفكير . وتمثل أمام عينيه منظر زوجه وصديقه وهما يساقان أمام القضاء لتفصل بينهما الكنيسة وتعود سونيا لتعيش مع جثة حية ويعود فرانس يطوي بين حنايا قلبه حبا كان قد بعث بعد أن ظل دفينا . .

دخل الجرسون وأسر في إذن رضوان بعض كلمات فخرج رضوان يوسع الخطى ونحن نشيعه بنظرات متسائلة ، ثم التفتنا إلى صاحبنا المشاكس ، وقلنا له « هات ماعندك ! » . فاعتدل في مكانه وراح يقص علينا قصته فقال :

« أخذ هرمان القطار من ليبزج في طريقه إلى ميونيخ وحجز له سريراً في عربة النوم — سار القطار ينهب الأرض ويطوي الهضاب والأودية بين مناظر خلابة خلعت عليها الطبيعة جمالا دونه كل وصف على أن هرمان لم يعر هذه المناظر اهتماما . فقد كان مشغولا يفكر في حسناء فاتنة أخذت مكانها في عربة الأكل . فبسم لها وأحنى رأسه

يحييها فردت تحيته ، وابتسمت هى الأخرى ابتسامة جعلته ينهض من مكانه و يتقدم إليها و يستأذنها فى الجلوس إلى مائدتها فقبلت راضية .

أحضر الجرسون ما لذ وطاب من ألوان الطعام والشراب . وطفق هرمان يحدثها فى غير ما كلفة حديث الصديق و يتكلم كثيراً عن مغامراته — شربا من النبيذ والشمبانيا الشيء الكثير ودبت الخمر دبيبها ، وعملا ومضت هى الأخرى تتكلم عن مغامراتها . وعرف هرمان أنها ممثلة مشهورة تطرف عواصم أوربا للترويح عن النفس بعد انتهاء عملها المضنى فى موسم التمثيل . وهى تقصد اليوم باريس فى آخر رحلة لها تنعم وتلهو .

قام هرمان وصاحبته يتمايلان لفرط ما أسرفا فى الشراب . وودعها ودخلت عربة النوم الملاصقة لعربة نومه . . .

مضى إلى سريره ، وخلع ملابسه وارتدى (بيجامته) وحاول النوم فاستعصى عليه ، وجعل يفكر فى هذه الحسناء التى سلبته لبه وهم بالذهاب إليها فخانته شجاعته ثم عاودته جرأة الخمر وسار إليها وطرق الباب ودخل وجلس على حافة سريرها . وأخذ يتكلم عن حبه لها وشغفه بها ، وكلما هم بالدنو منها دفعته عنها فى لطف وأدب فيعود إلى مكانه معتذراً . . .

جعل هرمان يهذى ويهرف فى كلامه و يطلب إليها أن تعاهده على الحب والزواج فتوسلت إليه أن يخفض من صوته مخافة أن ينتبه إليها أحد ، وطلبت إليه فى رجاء ملح مبارحة هذا المكان . . .

فتح هرمان النافذة واندفع هواء بارد يملأ رئتيه فاستفاق من

نشوته ودهش أيما اندهاش وهو يقرأ أسماء بعض المحطات وكانت غريبة عليه . وأدرك المسكين أن القطار يسير فى طريق لا عهد له به . وأن عربة نومه ألحقت بقطار آخر فى مدينة (هوف) وهى فى طريقها الآن إلى مونيخ وفيها حوائجه ونقوده وحتى تذكرة سفره . . . وها هو يقف الآن غريباً فى هذه العربة لا يملك غير (بيجامة) يستر بها جسمه . . .

ظهر رضوان فجأة ولم يمهلنا أن نسأله ومضى يتم قصته فقال :

« حدث ماتوقعه تلكى ووشى به صاحبه ومثل أمام القضاء وحضرت سونيا وفرانس ليدليا بشهادتهما وقد كان موقف سونيا دقيقاً ، وهى بين زوجين تشهق بالبكاء وتتنازعها عوامل الحيرة والفشل ولا تدرى مايبيت لها القدر ؛ فها هو زوجها الأول حى يرزق بعدما حسبته ميتا !

وجهت إلى تلكى تهمة التضليل ليحقق زواجا باطلا لا تقره الكنيسة . وقال فى دفاعه عن نفسه أنه ارتضى أن يعيش بين الناس جثة حية مسلوب الحقوق وخرج بذلك على التقاليد والقوانين ليكفل لامرأة تعيسة سعادتها الزوجية بعد أن ضنت بها الكنيسة .

وثارت ثائرة القاضى لهذا التمويه وحكم ببطلان الزواج الجديد . فأخرج تلكى على الفور مسدسه وأطلق على نفسه الرصاص لينقذ الموقف ، و بارك الزوجين وهو يعالج سكرات الموت . . .

الأسماك الطائرة

كانت السفينة التى أعمل فيها تقطع رحلتها بين الأسكندرية وتريستا وكان عليها أن ترسو فى ميناء « بيريه » لتفرغ شحنتها وتشحن من جديد ، ولم تكن تقل ركابا إلا بعض البحارة الفرباء الذين يتخلفون فى الثغور لأسباب ملحة ، وقد انضم إلينا أحد هؤلاء البحارة وكان قد أودع مستشفى المدينة أثر حادث أصابه فى مشرب من مشارب بيريه .

كان الرجل جم المرح كثير الدعابة يرسلها حتى فى أحرج المواقف وآلمها ، شأن البحارة .

أبحرت السفينة من (بيريه) ومضت تشق الماء فى جو معتدل وسماء صافيـة . وفى تلك الليلة التى ما برحت أذكرها وأرى صورها ماثلة أمامى ، تلك الليلة التى سبقت وصولنا إلى تريستا ، وقـد جلسنا نحتفى برفيقنا البحار حول مائدة صفت عليها أوانى الشراب وزجاجات النبيذ وما لذ وطاب من طعام شهى ، وقد لعبت الخمر برؤوسنا ، وراح كل منا يتحدث بما عن له من ذكريات البطولة والتفاخر فى مبالغة أحيانا . فى تلك الليلة وقف زميلنا البحار فجأة يتطاول بقامته القصيرة ووجهه الذى كان لا يزال شاحباً وعينيه الضاحكتين الماكرتين وأشار بأصبعه صوب الشاطىء الصخرى ، وكان القمر فى صراع دائم مع السحب الكثيفة التي كانت تحجب عنا صفحة السماء . . .

قال صاحبنا فى هدوء مصطنع :

— أنظروا يا رفاق إلى تلك الصخور القائمة ! فوالله أنى لأرى عليها الدماء البشرية وأسمع سقوط أجسام الضحايا الموثقة ، وهى تقذف من عل فتتلقفها الأمواج ، ويسرع إليها (أبو مورينة) — ذلك السمك الذى كان الناس يعتقدون أنه لا يكبر ولا يجود لحمه ويطيب إلا إذا أطعم وأشبع من لحوم الجوارى الحسان — وأنى لأرى كذلك صفحة البحر وقد امتزجت بالدماء وبين آن وآخر تنفرج أمواجها عن أشلاء متناثرة ومن عجب أن الحياة لا تزال تدب فيها ! أنها لم تزل تدب فيها الحياة فيسبح كل شلو منها إلى شلو فتتكامل منها أجسام حية وتنتصب فوق الماء فى قامات فارعة يتدلى شعرها الفاحم فوق ظهور فاتنة ، وترسل عيونها نظرات ساحرة تفيض حباً ورحمة . وها هى ذى أمامى ماثلة ، وقد انتظمت حلقات حلقات ترقص رقصة الموت وتنشد أناشيد الأسى والشجن وتحت أقدامها سمك المورينة الجائع يتطلع إلى هـذه الأجسام البضة الناعمة الفتية ولا يستطيع لها طلباً ، فما هى إلا خيالات ضالة فى هذا الخضم الفسيح تهيم حيناً ثم تثب فوق الصخر وتنبطح عليه وقد انتفش شعرها ، وماتت الابتسامة على تلك الشفاه الغضة التى كانت يوما ما تبسم فى مرح الشباب ورونق الحياة . . . وها هم أولاء عمالقة الجلادين غلاظ الأكباد قد شرعوا يشدون وثاق هذه الجثث الحية ثم يقذفون بها واحدة أثر واحدة فى فترات متباعدة إلى تلك الأسماك الجائعة . . .

وعاد صاحبنا إلى مقعده ورجع إلى شرابه يعبه عبا ، ومضى يقلب

ناظريه فى وجوهنا المتلهفة إلى سماع حديثه ، وقد شاعت فى أساريره علائم الحبث. ولعله كان يطرب به ما يحسه من شوقنا وتلهفنا إلى استرساله فى هذا الحديث الممتع ، غير أن صمته لم يطل فقد رفع رأسه وقال :

« ما أظنكم رأيتم ما رأيت ، على أن مخيلتى لم تختلق هذه الصور ولم تنسجها من خيال أو وهم ، ولكنها وليدة قصة وقعت حوادثها فى عصور خلت أيام أن كان للوثنية شأن ودولة وعز وصولة ، وكانت المسيحية فى فجرها الأول ما تزال طفلة تتعثر أمام تلك الدول الوثنية التى كثيراً ما عدت عليها وأذاقتها مر العذاب ونكلت بها وتنمرت لها . . .

كان أنطونيو من أشراف مدينة (فينسيا) وسراتها . وكان وسيم الطلعة واسع العينين ، مديد القامة ، ولم يكن كغيره من الأشراف متكبراً بل كان على العكس وديعا رحيما ، وقد حببه هذا إلى أبناء وطنه ، وكان واسع النفوذ كريم الخلق ، فنعم بحب الجميع وحظى بعطف قيصر . . .

تعلق أنطونيو بالفتاة ماريانا إحدى بنات الشهب . وكانت الفتاة بارعة الجمال كأنها تحفة نادرة أو تمثال حى من آيات الفن صاغتها آلهة الرومان على ما تشتهى وتشاء . أما عيناها فكانتا جوهرتين فاتنتين انتزعتا لونهما من زرقة البحر ، وكانتا عميقتين لا يسبر غورهما ، ساحرتين فى نظراتهما فتنة وإغراء ، أو قل كانتا ترسلان سهاما تشيع فى النفوس الخوف ، وأشعة رقيقة تبعث فيها الرجاء .

تمت الخطبة بين الفتى والفتاة ، وراحا ينعمان بالحب ويرشفان من منهله العذب ، فلم يتركا جنة إلا أظلتهما أغصانها وأحاطت بهما فيها

الورود والرياحين وصدحت لهما الأطيار بأناشيد الغزل والنسيب . وكان الفتى يسر فى أذن حبيبته كلاماً حلواً فيه رقة وعذوبة ، وكثيراً ما حدثها عن جمال الحب الذى يظل كل حى فى الرياض ، ويقول : « إنى لأراه فى عش الطير حانياً على صغاره ، وأراه فى ثنايا الأزهار تنقله الحشرات من كم إلى كم ، وقد يسعدنى كما يسعدك أن نرى لنا طفلا يكون موضع حبنا وزهرة آمالنا ، وإنى لتواق إلى أن نعجل فنبنى هنا هـذا العش الجميل ! »

وكان أن بنى لها ذلك العش ووهب لها فيه غلاما ، ولكنها أغمضت عينيها وأشاحت بوجهها عن الطفل عند ما دفعته إليها إحدى القابلات ودهش الحاضرون ، كما دهش الزوج عند ما رأى جفوة الأم وإصرارها على أن يفصل بينها و بين ابنها مدة اعتكافها؛ وما كادت تتماثل حتى فرت وهجرت العش وخلفت فيه الزوج البائس والطفل الضعيف . وتركت للزوج رسالة تبين له أسفها الشديد على ما فعلت إذ لم يكن فى طوقها أن تفعل غيره وأنها لم تركن إلى الفرار إلا حرصاً على حياة ولدها ولتنقذه من موت محقق ، فقد كانت أمنية الزوج أن تنجب له هذا الطفل العزيز لينعم بحبه فأرادت أن تحفظه له ليكون أنفس تذكار لها عنده ؛ وفسرت ذلك بأنها خشيت على طفلها من نظرات عينيها ، فقد أخفت عن زوجها أنها كانت كلما نظرت إلى طفل لا تلبث أن تسمع نعيه بعد يوم أو يومين ، وأنها كانت تألم لذلك الألم كله ، وتعجب

كيف تنقلب هذه النظرات التى كثيراً ما قيل إنها حلوة جذابة سما زعافاً يقتل هؤلاء الأبرياء الصغار ، وقالت فى رسالتها « لقد حدث ويالهول ما حدث ، أن جاء أخى يتوسل إلى أكثر من مرة أن أزوره لأرى ابنه الصغير ، فكنت أتلمس المعاذير وألفقها لأتفى هذه الزيارة . وأخيراً يئس أخى من ذهابى إليه ، فحضر ومعه طفله ودفعه إلى فمات هذا العزيز بعد أسبوع . . . »

« وهكذا ترى أيها الزوج العطوف أننى إنما فررت لينجو ولدنا من هذه النظرات القاتلة ؛ وقد استقر عزمى على أن ألجأ الى أحد الأديار المسيحية التى يتعبد فيها الناس خفية ، وأنى لأقدم هذه التضحية راضية مطمئنة عسى أن يبدلنى الله بهذه النظرات القاتلة نظرات أخرى تحيى القلوب ، فهم يقولون إن هذا الرسول الجديد يشفى المرضى و يحيى الموتى ، فلعله يشفينى مما أنا فيه من تعس وشقاء ! »

وانضمت ماريانا إلى أحد الأديار التى تعمل فى الخفاء على نشر المسيحية رغم ما تلاقيه من اضطهاد وتعذيب وقتل وتشريد ، وكثيراً ما كان يداهم عمال قيصر وجندهم هذه الأديار و يدكونها دكا على من فيها من أحياء ، وقد يأخذون من يبقى من ساكنيها حياً و يلقون به فى البحر إلى الأسماك القرمة . . .

وحدث أن دهم الجند دير ماريانا وأخذوا الراهبات ، وكان فيمن أخذوا هذه الراهبة التى وهبت نفسها بعد زوجها للسيد المسيح ، وصلت كثيراً وانقطعت للعبادة وضحت بهذا الشباب الغض الذى ذبل

بين جدران محرابها الصغير ، تركع فيه أمام الصليب واصلة ليلها بنهارها حتى اختفى من نظراتها ذلك البريق المخيف الذى يبعث الرعب والفزع فى قلوب هؤلاء الأبرياء الصغار .

قبض الجند على هاته النسوة الضعيفات ، وأوثقوهن وأرسلوهن إلى تلك الصخور المتعطشة لدم الضحايا ، وإلى الأسماك الجائعة لتتغذى وتشبع ويجود لحمها ويطيب ويصلح لموائد القياصرة ، ويقدم قربانا على مذابح الآلهة !

وضعت هذه الجثث الحية الموثوقة فوق الصخور ومن حولها الجلادون العمالقة وقد وقف كبيرهم على رأسهم ملوحا بيدة فيلقون بأحدى هذه الضحايا التعسة إلى البحر . وما أن سمع انطونيو بكارثة الديروما انتهت إليه وعلم كذلك مآل زوجه الراهبة ، وكان لايزال يكن لها الحب كله حتى أسرع وحظى بمقابلة قيصر ورجاه وألح فى الرجاء واستعطفه وألحف فى الاستعطاف حتى فاز أخيرا بعفو قيصر عن زلة زوجه على شرط أن تهجر دينها الجديد وتعود الى الوثنية الحقة دين قيصر ! وسلم انطونيو رسالة فيها أمر بالعفو عن الراهبة ماريانا .

امتطى أنطونيو صهوة جواده وأخذ يضرب فى الأرض ويطويها طياً وهو يلوح بالرسالة فى يده فرحاً بما وصل إليه ، قلقاً من أن يصل بعد فوات الوقت . . .

وفجاءة توقف صاحبنا البحار عن الحديث ، وكان قد نكس رأسه ثم رفعه ومضى يهذى بكلام غامض غير مفهوم لكثرة ما شرب ،

وساد المرح والمزح بين الجماعة التى احتدم بينها النقاش ، وقام صاحبنا متثاقلا إلى سريره فى السفينة وطفق يغط فى نوم عميق .

ولما أصبح هرعنا إليه والتففنا حوله ورجوناه أن يتم حديثه ، فنظر إلينا ساخراً وقال :

« أى حديث يا رفاق ؟ ! ! دعونى أذهب إلى منزلى لأقابل زوجى وابنتى ! »

فصاح به أحدنا :

« أكنت إذاً تكذب على التاريخ ؟ »

فأجاب صاحبنا فى غير اكتراث كأنه لا يعرفنا :

« إن التاريخ يا سادة لزخار بالأكاذيب ! فلم لا نضيف إليه أكذوبة أخرى ؟

وغادر السفينة ونحن نشيعه بنظرات ملؤها الحنق والغضب .

بيت الشموع

سافرت إلى إحدى المدن الجبلية لقضاء عطلة عيد الميلاد . وحدث أن خرجت يوماً بعد الظهيرة أرتاد الأنحاء المجاورة وأجوس خلال الغابات ، ولذت استرشد فى هذه الرحلات القصيرة بالأسهم الملونة الموضوعة فوق الأشجار ، وجعلت أهبط الأودية وأصعد القمم القريبة ؛ ولما أعيانى التعب استلقيت على العشب ونمت نوماً عميقاً — ثم صحوت على صوت الرعد الذى كان يهز الجبال ، وقد خيم الظلام فوق الأرجاء ، وانهمر المطر غزيراً ، فلم أجد بداً من الرجوع صوب المدينة ؛ ولكن حالت دون ذلك شدة حلكة الظلام المفاجىء ، فكنت أضرب فى الأرض على غير هدى ، ولم أعد أتبين لون الأسهم ، ولم أعثر على عاصم يقينى شر المطر . واشتدت الزوبعة ، فصرت أعدو كالحيوان تطارده كلاب الصيد إلى أن بلغت الطريق العام .

وما هى ألا هنيهة حتى سمعت صوت سيارة تدنو وتقف على بضع خطوات منى ، ثم فتح بابها وهبط منها رجل أنيق طويل القامة نحيل الجسم ذو عينين واسعتين تنم نظراتهما عن رحمة وطيبة . . . تقدم الرجل وعرف نفسه إلى ، فأذا هو من أشراف الناحية ودعانى لاصطحابه فى سيارته ، وألح فى أدب أن أمضى معه تلك الليلة وقال إن زوجته ستسر بهذه المفاجأة وهو يحتفل الليلة بعيد ميلادها ، وقد أحضر لها من المدينة بعض الهدايا والتحف ، ورجانى أن أقبل دعوته لأدخل السرور عليهما فى هذه الوحدة المضنية .

قبلت الدعوة فى خوف لا أعرف مصدره ! وسارت بنا السيارة حتى وقفنا أمام قصر أنيق ، ثم وجدتنى أسير فى حديقة نسقت أحسن تنسيق . وكان الخدم بملابسهم المزركشة يفتحون أمامنا الأبواب ؛ وقد استرعى نظرى كثرة ما أضىء فى هذا القصر من شموع كأنه كنيسة أعدت لاستقبال راحل عزيز ! وجعلت انتقل مع صاحب القصر من حجرة إلى أخرى ، وطفق يشرح لى ما بها من تحف ثمينة أحضرها من مشارق الأرض ومغاربها إلى أن انتهى بنا المطاف إلى غرفة هدايا زوجه ، فأخرج من جيبه بعض الحلى وأراناها ، فتولانى رعشة . ثم وضعها إلى جانب مجاميع الهدايا الأخرى ، وكتب عليها تاريخ السهرة الحالية .

وقال فى ظرف أن زوجته ستسر لهذه الهدايا أيما سرور ! وأمر أن يعد طعام العشاء لثلاثتنا . واقتادنى بعد ذلك إلى غرفة المائدة ، وكانت مضاءة بالشموع التى ينبعث منها نور هادىء يبعث فى النفس الحزن . وكان فى الغرفة شتى أنواع الأزهار البيض ؛ وقد لاحظت أن العشاء قد أعد لثلاثة فقط . فدعانى للجلوس وقال إن ربة الدار ستحضر حالا للحفاوة بى ، وإنه ليسرها أن أكون بينهما هذه الليلة لأدفع عنهما الملل والضجر ؛ وأومأ إلى الخادم أن يحضر الطعام وأن يخبر سيدته أن كل شىء قد أعد ، وأننا فى انتظارها !

وما هى إلا لحظات حتى جىء بالطعام ودخل أحد الخدم بعد ذلك يخبر سيده أن سيدته ترحب بالضيف الكريم وتعتذر لعدم إمكانها

الجلوس معنا إلى المائدة لصداع أليم أصابها ، وهي تأسف لذلك شديد الأسف ، وتعد بالحضور أن أمكنها ذلك ، وقد طلبت أن يعد لها الطعام في غرفة نومها !

فلم نجد بداً بعد ذلك من تناول العشاء دونها ؛ وطفقنا نأكل صامتين ؛ وكان المكان موحشاً رغم ما به من بهجة مصطنعة . وبعد أن فرغنا من الطعام أرشدني إلى غرفة نومي وأسف لمرض زوجته وتمنى لي نوماً هادئاً وأحلاماً سعيدة ، وانحنى مسلماً وتركني وحيداً . خلعت ملابسي وحاولت النوم فلم أفلح ، وتراءت أمام عيني صور شتى لأعزاء فقدتهم وتخيلت كأني في مقبرة أرى العظام النخرة وقد اكتست لحماً ، وانتصبت واقفة تزاحم بعضها بعضاً وتحولت المقبرة إلى مكان فسيح فيه أشجار يانعة وأزهار غضة . ثم دق جرس كنيسة معلناً قدوم عروسين — وانقلب المكان فجأة خراباً يباباً . ودق جرس الكنيسة لكنه في هذه المرة كان دقاً حزيناً يعلن موت عزيز ؛ وكنت أسمع وأنا في هذه اليقظة الموحشة أصواتاً مفزعة وأنيناً متقطعاً ، كأنه حشرجة الموت ! وكثيراً ما سمعت صوت سقوط أجسام غريبة ، وخيل إليّ كأني أسمع صوتاً يزجر ؛ ثم يتنهد ، ثم يرسل ضحكات عالية يسخر بها من بطش القدر . . وكأني أسمع بين هذا وذاك صوت فأس يعمل في الحديقة بوحشية ، فتخر أمامه الأشجار والأزهار كأنه صوت الفناء . . .

لم أنم هذه الليلة ؛ وكنت أطلب من الله أن لا يطيل آية الليل لأخرج من هذا الجحيم . وما أن انبلج الصبح حتى ارتديت ملابسي ،

وأسرعت فى الخروج من هذا السجن ، فوجدت الحديقة على غير ما وجدتها بالأمس : خراباً بلقعاً ! وقابلت صاحب الدار فوجدته ذا عينين شاردتين يتطاير منهما الشرر ، ووجه مكفهر غابت عن أساريره الوداعة والرحمة ، وقد علق بملابسه الوحل والتراب مما قد عاناه فى ليلته من صراع مع عناصر خفية جبارة ! فاقتربت منه وأنا لا أفهم من كل هذا شيئاً لأشكر له وأشكر للسيدة المحترمة هذه العناية الفائقة . ودهشت لنظرات الرجل الشاردة وابتعاده عنى كأنه لا يعرفنى ، فمررت خارجا فقابلنى أحد الخدم فاستفسرته الخبر وطلبت إليه أن يحمل بالنيابة عنى آيات الشكر إلى السيدة والسيد ، فقاطعنى قائلا « أية سيدة ؟ » فقلت « ربة الدار ! »

فمسح دمعتين وقال « وارحمتاه لها ! — قد فقدناها منذ عشر سنين وقد ماتت فى ليلة عيد الميلاد ، وقد جن سيدى من هذه الصدمة ، ولا يفيق من جنونه إلا ليلة عيد ميلادها — وقد شاهدنا هذه المأساة طوال تلك السنين العشر . . وها هو ذا قد عاد إلى جنونه ! »

فمسحت أنا الآخر دمعتين وخرجت مسرعا لا ألوى على شىء ، كأنما يطاردنى هذا الرجل بوجهه المكفهر ! ودهشت أيما اندهاش لهذا النوع الغريب من الوفاء .... وفاء مجنون لأحدى بنات حواء ! ! !

التمثال الثالث عشر

... كان باب قاعة العمليات فى مستشفى الجامعة يفتح فى ردهة واسعة حشدنا فيها ننتظر بدء المحاضرة ، وقد انتظم الطلاب حلقات حلقات يتناظرون ويطرقون موضوعات متعددة فى شئون مختلفة من سياسة وعلم إلى اجتماع وأدب ، إلى أحاديث لهو ومغامرات ، إلى غير ذلك من عبث الشباب . واختلطت الطالبات بالطلبة وعلائم السرور والبهجة بادية على وجوههن ، وكن يتكلمن فى غير تكلف وينفثن الدخان من أفواههن كأنهن القاطرات ؛ ولعلهن كن معجبات بأنفسهن ، يقلدن الطلبة ويتبادلن وإياهم فى فخر وإعجاب كلمتى « الزميل والزميلة » .

كان هذا يوم الاثنين . وقد بكرنا جميعاً لحضور المحاضرة التى ستلقى فى الجراحة وكنا نحرص عليها كل الحرص عادتنا فى محاضرات أستاذنا الدكتور (ل) الذى أحببناه جميعاً لدماثة خلقه ولشهرته العالمية وبحوثه القيمة . وكان رجلا ، فوق سعة علمه ، طيب القلب يحب الناس جميعا ويعطف عليهم ويمد الفقراء بالمال . وكان يحب مرضاه ويضحى بكل وقته لهم ، ويعكف على الدرس ليكشف لنا عن جديد . ولم يمنعه كل هذا من الاشتراك فى الجماعات الخيرية ، فكان يساهم فيها ببعض ماله . وكان فى محاضراته خطيباً بارعا يمزج الجد بالهزل ، فى ذلك اليوم — يوم الاثنين — ولعله كان فى شتاء عام ١٩٢٤ كنت

أقف فى هذه الردهة وإلى جانبى إحدى الطالبات وكانت مجرية من أصل ألمانى . وكان لا يزال على بدء المحاضرة نصف ساعة . كانت هذه الفتاة فتانة حقاً كأحسن ما تكون الفتنة ، وقد وقفت فى قامة معتدلة كأحسن ما يكون تمثال لأبرع مثال ، وقد تجلى الحسن فى وجهها ولم تحاول أن تحرك رأسها أو جسمها يمنة أو يسرة ، كأنما أرادت أن تكون تمثالا . كانت الفتاة اليوم على غير عادتها شاحبة الوجه ، كثيرة التفكير وقد دخنت كثيراً ، وما أحسبها استعملت إلا عود ثقاب واحد . سألتها عن الحفلة الساهرة التى أقامتها الجامعة أمس الأحد وقلت لها : « أظنك رقصت كثيراً ، وأظن الجميع تشاحنوا حولك؟ » ولكنها قالت فى حزن وكآبة « لقد منحت الأستاذ (ل) كل وقتى فلم أرقص مع أحد سواه » فابتسمت فى خبث وقلت لها « أهنئك يا زميلتى على هذا الفوز العظيم ، ولعل هذه كانت بغيتك منذ زمن طويل ؛ فأنا أعرف مبلغ حبك لأستاذنا الكبير ، كما تفعل بنات المدارس عند ما يقع بصرهن على أول مدرس وهن بعد فى سن الحلم ! وما كان هذا الحب يخفى على أحد » .

فتح باب المدرج ودخلنا وفتح الباب الآخر الذى يؤدى إلى دهليز طويل ينتهى بعنبر المرضى ودخل الممرضون يحرون نقالة قد ثوى فوقها مريض ودخل فى أثرهم الأستاذ ومساعدوه فوقفنا وحيانا ثم جلسنا . وبعد فترة قصيرة قال الأستاذ « إن مريضنا اليوم يعانى آلاماً مبرحة من جراء خراج فى المخ » واستطرد يقول « كان هذا المرض إلى وقت قريب ، يقضى على ضحاياه ونحن وقوف نشهد المأساة ولا نستطيع

غير الصلاة ، ثم نودع المريض فى ألمه وجسره هما وسيلتا العجز والقنوط !
أما الآن فقد اهتدينا ، وما أكثر ما نهتدى إذا ما توافرنا على الدرس ، إلى ماينقذ البشرية من أعدائها ! » سكت الأستاذ برهة وأشار بأصبعه إلى جهاز يشبه المحقن ثم أردف على الفور « بهذه الآله البسيطة يمكننا سحب صديد الخراج لو عرفنا مكانه ؛ وهكذا أصبحت هذه العملية الخطيرة سهلة ، على أن فى هذا الدماغ البشرى المعقدة ما هو شر من هذا الخراج ، وهو ما لا أعرف مكانه ، ولا أظن أن له مكانا !؟ فهم يطلقون عليه اسم (العقل الباطن) ويدعون أنه فى الدماغ ، وأقسم لكم يازملائى الصغار أنى لا أتردد لحظة فى القضاء عليه لو وقفت إلى مكانه ! وعندى أنه لو قدر لنا أن نخترع إنسانا آليا كما يحاول إخواننا الأمريكان فى الدنيا الجديدة ، لكنت أول من يترك هذا العالم غير آسف ليحل محل الأنسان الحديدى فلا يوجد بعد الآن هذا المخلوق المريض الذى يعانى من عقله الباطن الأمرين ، فلا نعود نشقى ! لقد أحببت التماثيل لأنها عواطل من هذه الأجهزة المعقدة التى تحمل بين ثناياها المرض والجريمة ! »

أمسك أستاذنا العظيم وراح يتحسس رأس المريض وأجرى العملية فى مهارة فائقة .

وقالت لى صديقتى الجرية وكانت تجلس إلى جانبى « لقد صدق حدسى وتخمينى فقد شعرت أنه سيتكلم عن كل هذا ! » غادرت وإياها قاعة المحاضرة وهى تجر نفسها جرا فأسندتها بذراعى وفارقنا مستشفى الجامعه . وكانت تسير إلى جانبى تتكلم كلاما لا أفهمه وقد التصقت

بجسمى كأنها تريد أن تندمج فى أى جسم آخر ! وسرنا على هذه الحال حتى وصلنا إلى أحد المقاهى فتهالكت على مقعد وجلست إلى جانبها ، ولم أشأ أن أسألها ما بها ؛ ولكنها تماثلت بعد قليل وابتسمت فى مرارة وقالت : « اغفرلى يازميلى ما سببته لك من قلق وتعب ! » فهدأت روعها وقلت «ما أحسب أن محاضرة اليوم تثير أعصابك الى هذا الحد! » قالت ليست محاضرةُ اليوم يا صديقى ولكنها ليلة أمس الساهرة ! » فقلت على الفور « لاشك أنك نعمت بأطيب وقت بين الرقص والشراب مع أستاذنا! » فقالت فى حركة عصبية «دعك من هذا ياعزيزى ، ولا بأس على أن أكاشفك بما كابدته أمس ، فأنا أحوج ما أكون إلى من أبثه آلامى!» ثم أشعلت لفافة وقالت « لا أكتمك يا صديقى أنى إنما ذهبت أمس الى هذه الحفلة الساهرة لأتمتع عن بعد وقرب بمشاهدة أستاذنا (ل) وما كنت لأهتم أن يفتضح أمرحبى له ؛ فقد شغفت بهذا الرجل حتى ملك على حبه كل حواسى رغم أنه لم يبادلنى هذا الحب ، وكنت أشعر أنه يحنو على كما يحنو عليكم جميعاً ، وإذا ما انفردت به مصادفة قال لى إنه لا يحب هذه المخلوقات المكونة من لحم ودم فقد عافتها نفسه لكثرة ما عمل بمبضعه فيها ، وخير لها أن تستحيل تمثالا فقد حببها الطبيعة أجمل قوام عرفه مثال ! ثم يتولى عنى ويتركنى وأنا أشيعه بنظرات تتضارب فيها المعانى . كان أمس وكانت الليلة الساهرة وقد أخذت لها أهبتى فتجملت ما شاء لى التجمل وذهبت يحدونى الأمل ؛ وما أن وقع نظرى على الأستاذ وبصر بى حتى خف إلى مرحباً باشاً وهو يقول « لن أدعك

الليلة تفرين من بين ذراعى ياعصفورى الحبيب ! وسوف لاتندمين على مراقصة أستاذ تخطى الأربعين !» رقصت مع الأستاذ الكبير كثيرا وشربت من النبيذ كثيرا وكنت كلما راقصته همس فى أذنى قائلا حاولى أن تكونى كالتمثال ما وسعك ذلك « وصدقنى يا زميلى أننى برمت بهما الحديث الذى كرره كثيراً وتركته فى حلبة الرقص وحيدا دون شريكة بعد ما عاد يتكلم عن التماثيل وذهبت إلى إحدى الموائد وجلست وأنا اشد ما أكون غيظا وحنقا على هذا الأستاذ الذى ماحسبته معتوهاً إلى هذا الحد ! ولكنه ما لبث أن تبعنى وجلس إلى جانبى ساكناً وناولنى أكثر من كأس من النبيذ المجرى الذى أحبه. فجعلت أعب الكأس تلو الكأس وأنا لا أعى شيئاً مما يدور حولى لفرط ما جرعت من شراب ؛ ثم أفقت من غشيتى وجعلت أعود إلى نفسى فأمسك فى رقة وحنان بيدى وقال لى «إنك لا تعرفين يا عزيزتى ما أعانيه من آلام نفسية ولا أود أن أفضى إليك بدخيلة نفسى فأزيد فى ألمك وألمى بعد ما أحسست حبك لى ! ولعلى لا أكون قاسياً إذا صارحتك وكشفت لك عن ناحية عجيبة من نواحى هذه النفس المعذبة قد تسخرين منها ! » . سكت الأستاذ وزم شفتيه وحاول أن يتكلم ولعل الكلام استعصى عليه ، وظل ساكناً يعبث بأصابعه الطويلة فى شعره كمن يريد أن يبدد شيئاً ثم راح يلوح بقبضة يده كمن يتوعد ويتهدد ثم يعود فيبسط يده فى حركات هادئة كمن يرجو ويتوسل . كنت أنظر إلى الأستاذ وأراقب وجهه الشاحب وقد تزاحمت الأفكار فى

رأسى وهمس فى فؤادى هامس يقول : ما الذى يدور فى رأس هذا الرجل الطيب الذى يكاد يتحطم أمامى ؟ غير أنى ربت على كتفه وقلت له « ما بك يا عزيزى ؟ هدىء من روعك واكشف لى عن خبايا نفسك ! » . عاد إلى الأستاذ هدوءه واستجمع قواه كأنه يستعد لمعركة بينه و بين نفسه وقال لى ولسانه يتعثر « أنا أحب التماثيل لدرجة العبادة وقد أنسانى حبها كل شىء سواها وكل حب غير حبها ! وأنى أقتنى منها الكثير » ثم خفض من صوته واستطرد قائلا « وقد يدهشك يا عزيزى أن تعرف أنى أتزوج كل أسبوع تمثالا من هذه التماثيل البديعة وما أرى بأساً من أن أتزوج هذه الليلة تمثالا حياً على أن تقوى أنت بدور التمثال . . فما رأيك ؟ » احمر وجه الأستاذ عند ما انتهى من حديثه كأنما استشعر خجلا وهو يعترف أمامى ، ثم ما لبث وجهه أن اكفهر وتخلجت عيناه وكدت أصعق من هول نظراته ؛ وعبثا حاولت أن أتكلم أو أغضب أو آتى بحركة ولست أعرف ما الذى انتابنى أمس حتى أصبحت أطوع له من بنانه ؟ ! »

« هم الأستاذ واقفاً واقتادنى وأنا أسير إلى جانبه فاقدة الوعى ثم رأيتنى أجلس إلى جانبه فى سيارته وكان الجو بارداً ، وتساقط الثلج فانتعشت وكأنى صحوت من رقاد عميق فبدرته قائلة : « إلى أين ؟ » . أجاب « سنذهب بعـــد جولة قصيرة إلى حيث أسكن وليس هناك ما يزعجنا ، فالخادم العجوز لا تأتى إلا فى الصباح وتكونين أنت قبل ذلك بساعات فى منزلك ! » ثم نظر إلى وأردف « لو أنك استطعت الآن

ألا تحركى رأسك فسأمنحك قبلة! » فحاولت وصاح فرحاً « ضاحكها يا عزيزتى أن رأسك البديع يشبه رأس (جاليتيا) التى عشت معها فى القصة وأنا أتصفحها. لقد كان (بيجمليون) أحمق حين طلب إلى الآلهة أن تمنح تمثاله البديع الحياة ، وتجعل من هذه الصخرة الجميلة التى لا تضر أحداً والعاطل من العقل الباطن مخلوقة من دم ولحم تشعل الغيرة بين أرجاء هذا البيت الهادىء ، وما كان أغناه عن أن يستبدل النعيم بالشقاء ! . . »

« سارت السيارة تنهب الأرض وكنت معه كالطفلة أمثل دور التمثال أكثر من مرة لأفوز منه بالقبل ، وكنت جد سعيدة بهذا التمثيل فقد أطرانى وعانقنى وأخيراً وصلنا إلى حيث يسكن وفتح الباب وجلسنا إلى مائدة فى الردهة وأحضر زجاجة نبيذ مجرى وطفقنا نشرب وندخن ثم غاب قليلا وعاد يحمل عدة تماثيل صغيرة تجلى فيها آيات الفن وقد كتب على كل تمثال تاريخا فسألته عن هـــذا فقال « أنه تاريخ الزواج وأنا لا أتزوج التمثال إلا ليلة واحدة ؛ وأنت يا عزيزتى ستكونين فى هذه الليلة التمثال التاسع فى هذه السنة . لا يحضر زواجنا قسيس وتجلسين أنت فى هذه الردهة وسأكون أنا فى هذه الغرفة وسأغلق الباب بيننا وأطل عليك من شراعة الباب الزجاجية أبعث إلى التمثال التاسع الحى بالقبل ثم تنصرفين بعد ذلك إلى بيتك ! »

« لم أحاول أن أقاوم هذه الرغبة و بقيت فى مكانى جامدة وأغلق

الباب ورأيت ويا هول ما رأيت : رأساً مشعثاً ووجهاً احتبس فيه الدم وعينين جاحظتين وفماً يفتح ويطبق ! ولم يلبث هذا المشهد المؤلم طويلا فقد سمعت صوت جسم يهوى إلى الأرض ، فلم أقو على المكث فى هذه الردهة ، وهرولت مسرعة أتعثر إلى أن اهتديت إلى الباب وخرجت من هذا الجحيم وأنا لا أكاد أصدق ما رأته عيناى حتى بلغت منزلى ؛ لم أنم ليلتى وها أنت ترانى متعبة وفى حاجة إلى نوم عميق وهيهات أن يجد النوم سبيله إلى رأس ازدحمت فيه الوساوس ! وأنى لى يا عزيزى أن أنسى ذكريات الأمس القريب ! وأنا لم أفهم شيئاً أكثر من أنى لبثت فى تلك الردهة كالتمثال الجامد وخرجت بعد أن سمعت صوت جسم يرتطم بالأرض وما عساى أدرك من هذا النوع الجديد من الزواج ! وهأنذا التمثال الناسع الذى تزوجه الأستاذ أمس وهأنذا أعجب بهذا الزواج الذى ينتهى بالطلاق بعد ساعات وأن آسف على شىء فلأنى لم أحاول أن أكشف سر هذا الزواج العجيب ولكن الباب كان مقفلا ؛ وأقسم لك يا صديقى أننى كنت أقتحم الباب لو أنه كان مفتوحا لأكشف هذا السر ! » .

ودعت هذه الزميلة وأنا لا أكاد أصدق ما سمعته منها عن أستاذى العظيم وقلت لنفسى أقنعها وأعلل هذه الظاهرة العجيبة ، لعل المسكين عانى فى طفولته كثيراً من الشقاء ، ولعله كان يجد فيما يهدى اليه من اللعب والتماثيل سلوى ، فشب يحبها ! أو لعله عانى غير ما حدثت به نفسى الحائرة !

مرت أسابيع أربعة على هذا الحادث — زواج التمثال التاسع وقد روعت الجامعة بخبر هز أرجاءها وهز أفئدتنا معه . فقد وجد الأستاذ العظيم مشنوقاً فى غرفته وأمامه التمثال الثالث عشر وقابلت صديقتى المجرية وقلت لها « لقد حل اللغز فصاحبك من هذا النوع الذى يبحث عن اللذة فى العذاب وكان عليه أن يقطع الحبل قبل أن يأخذ بخناقه تماماً كما كان يفعل مع تماثيله السابقة . ولقد لقى المسكين حتفه وهو يتزوج التمثال الذى يحمل العدد المشئوم . وقد قرأت فيما بعد أن أحد المشنوقين انقطع عنه الحبل وراح فى غيبوبة أفاق منها بعد برهة وراح يقلب ناظريه فيما حوله صائحاً وصاح فى صوت مختنق « ما كنت أود أن أستفيق من هذا الحلم اللذيذ ! ولعل المسكين مشى إلى المشنقة للمرة الثانية بقدم ثابتة ونفسه لا تعرف الخوف ليكمل ما انقطع من حلمه اللذيذ . وها قد رأيت يا عزيزتى أن الإنسان عند ما يأوى إلى غرفته فالله وحده يعلم إن كان وراء هذا الباب الموصد ملاك أو شيطان ! »

فرخة توت

اشتد النقاش حول ذلك الرجل الذى أسلم مقاليد أموره لزوجه العاتية ، فعاش معها يحمل قلب أمرأة وعاطفة امرأة ، واحتمل فى صبر وجلد ظلم زوجه وقسوتها . و بلغ به الضعف والخنوع حداً جعله يغض الطرف عن نزوات هذه الزوج ، فكان يتقبل تحت سقف بيته عاشقاً أو خليلا ، وهو فى نجوة من الغيرة أو ما يشبه الغيرة ، أو حتى ما يحرك فيه داعى الرجولة . . .

ماتت عنه تلك المرأة الطاغية ، ولكنه حزن لفقدها وظل يغير المؤنثات من بعدها . ولما لم يوفق إلى مثل هذه المرأة مرة أخرى أخذ عليه اليأس سبيله ، ورأى فى الموت خلاصاً من حياته الوادعة الجديدة فى ظل زوجة طيبة القلب تحبود بعطفها ، فعمد إلى قتل نفسه ليلحق بشريكته الجبارة ! ! !

احتدم الجدل حول موضوع هذا الرجل وهذه المرأة وكنا فى حجرة المطالعة فى نادى الجامعيين ، وكان بيننا الرجل الأعزب الكهل والشاب المتزوج الرزين والرجل الطفل المدلل . . . صور من الرجال اكتملت فيها الرجولة الصحيحة ، وصور أخرى من أنوثة النساء لولا أرديتهم لحسبتهم من الغانيات ! وتضاربت الآراء حول تفسير أسباب هذا الشذوذ فى العلاقات الزوجية بين الرجل والمرأة ، فذهب بعضهم إلى القول بأن هذا الشذوذ كثيراً ما ينشأ عن علل نفسية . واستشهد أحد

المتحدثين بحالة البنت التي قد تنشأ مثلا في أسرة فتجد أباها لا يحجم عن دوام النيل من أمها ، وتهذيبها لأتفه الأسباب بالحق وبالباطل ، وترى أمها في هذا الجو الخانق تعسة مظلومة ؛ فمثل هذه البنت تشب وقد انطوت نفسها على كراهية الرجل والرغبة في التنكيل به . . . وذهب آخرون إلى أن هذا الشذوذ قد يرجع إلى خلل في الجهاز التناسلي يفقد الرجل بعض صفات الرجولة مثل حب السيطرة والسيادة ، ويصبح وهو في أشد الحاجة إلى مخلوق يحميه ؛ كما تنعدم في المرأة صفة الضعف والاستكانة ويقوى فيها الميل إلى السيطرة والعناد . . .

وتكلم غير هؤلاء وأولئك كثيرون . . . فرضوا الآراء المتباينة حتى سادت المكان جلبة صاخبة ، فآثرت مبارحة النادي متخذاً سبيلي إلى منزلي ، وقد ازدحمت رأسي بشتى الأفكار والصور ، وما لبثت هذه الصور أن تركزت في رجل يدعى (ياقوت أفندي) .

كان الرجل ضئيل الجسم قصير القامة ضيق الكتفين ، يتدلى منهما ذراعان قصيران في فتور حتى لتحسبهما مفصولين من كتفه لولا صلة صغيرة ، وعلى أنفه منظار يهتز ويتدحرج ويكاد يسقط فيرده بأصابعه الناعمة في فتور ولين ، وكان إذ يجتاز الطريق يمشي وئيداً وقد اعتراه الخوف دون ما سبب دون أن يمنعه خوفه هذا من أن يهوب الطرقات المزدحمة والشوارع المأهولة حتى أصبحت شخصيته معروفة تلفت إليها الأنظار . .

ارتسمت في مخيلتي صورة ذلك الرجل وأنا أقطع الطريق بين النادي والمنزل — وما أن بلغت الدار حتى رأيت نفسي وجهاً لوجه أمام جاري

(ياقوت أفندى) ، وكان لا يزال يلبس الحداد على زوجه الراحلة ، وتبادلنا بعض كلمات — كعادته فى كل مقابلة — ثم طفق هذه المرة يتحدث والدمع ينهمل من عينيه على زوجته يعدد مناقبها ويطرى أخلاقها وفضلها عليه وبرها به . وراح يقول فى صوت متهدج « مسكينة هذه الزوجة . . . قد ظلمها الناس وتجنوا عليها ! تصور يا صديقى أنه جاءنى مرة خطاب خفل من الإمضاء ينبئنى فيه كاتبه الحقير أن زوجتى كثيراً ما تتردد على منزل يتلاقى فيه العشاق ! وذهبت إلى العنوان المدون بالخطاب ظناً منى أنى سأفاجئ زوجتى بين أحضان عشيق وكان أن ظهرت لى الحقيقة . . . أتعرف ماذا وجدت ؟ ؟ ؟ » ثم سكت هنيهة وأردف على الفور « إنه كان منزل خياطة ملابسها قد أقيم فيه حفل قيل لى إنه عيد ميلاد إحدى الحاضرات . . . كانت زوجتى تلهو وتعبث مع العابثين ولم تكن الزوجة الوحيدة فى هذا الحفل ، فقد كان هنالك زوجات كثيرات ورجال كثيرون كلهم من علية القوم أثرياء . ولم يكن فيهم زوج شرعى ساقته الصدف الطيبة سواى : ولعل زوجتى لم تخبرنى بذلك من قبل لعلمها أنى رجل من طراز قديم . ورغم أنى لم أكن مدعواً إلى هذا الحفل فأننى كنت مسروراً كل السرور . فقد كان الشراب ممتعا والأكل شهيا ونعمت بأطيب الأوقات بين هذه الوجوه الغريبة على ! ! ! كم تمنيت لو عرفت عنوان ذلك الرجل الذى أرسل الخطاب لأرد عليه الرد المقنع وأعلمه درساً فلا يعود يندد بربات الخدور ! ! ! وغير ذلك كثير يا عزيزى — رحمها الله — كانت طيبة

القلب مظلومة دائما ! » استمعت إلى ياقوت أفندى وأنا مشدوه وقد انعقد لسانى فلم أقاطعه طوال الحديث . ولما أحس منى هذا الجمود وهذا الصمت هزنى وحملق فى وجهى وقال « ألا تقول شيئا؟» وتركنى ومضى

وصعدت إلى منزلى وجعلت أفكر فى أمر هذا الرجل الذى اشتهر بين الناس باسم (شرابة خرج) ولم يحاول من جانبه أن يغير هذا الاسم أو يدافع عن نفسه عندما ينعته به أحد من الناس . . .

لم أعرف (ياقوت أفندى) هذا إلا من سنتين ، يوم أن سكن فى الشقة المجاورة فى المنزل الذى أقطن فيه ، وكان علينا أن نقوم بواجب الزيارة والترحيب بهذا الجار الجديد ، فقصدت اليه مع زوجتي وما دخلنا غرفة الجلوس وانتظرنا حتى حضرت ربة الدار بعد قليل واستقبلتنا فى ترحاب ، وأخذنا نحن الثلاثة نتجاذب أطراف الحديث فى غير تكلف كأننا أصدقاء قدماء ، فقد كانت السيدة محدثة بارعة وقد بدأ وجهها جميلا حقا رغم ما كان يبدو على محياها من قسوة وعناد — وبينما نحن نستمع إلى حديثها الممتع إذ بياقوت أفندى يطلع علينا وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى وبعد أن حيانا هرول مسرعا وأخذ مكانه فى آخر القاعة . ولم يكن دخول ياقوت أفندى على هذا النحو مما يدفع الزوجة إلى قطع حديثها ، وكان كل ما بدر منها أن ألقت عليه نظرة فاترة ومضت فى الحديث دون أن تتركنا نستشعر بوجوده . وظلت السيدة تنتقل بنا من حديث إلى حديث دون سأم ، والرجل قابع فى مكانه لا يفارقه إلا عندما يصدر إليه من زوجته أمر بأن يتعجل الشاى

أو القهوة أو تبعث به رسولا لاستطلاع سبب جلبة بين الخدم أو أفراد الأسرة ، ثم يعود بعد انتهاء ما أمر به وهو يقدم رجلا ويؤخر أخرى ويأخذ مكانه فى آخر القاعة !!

لم نتبادل زيارة واحدة بعد هذه الزيارة فإن ما خبرناه بعد ذلك فاق كل ما رأيناه من علاقة غريبة بين الرجل وزوجته فى زيارتنا تلك فكثيرا ما سمعنا لطمات وصراخا أليما أفزعنا حتى إذا ما تبينا الأمر عرفنا فيه لطمة الزوجة وعويل ياقوت افندى .

وكثيراً ما رأينا هذه الزوجة تفتح الباب بقوة وتسمع فى منتصف الليل جسماً ضعيفاً يلقى على درجات السلم وتقفل الباب بشدة . ثم يعود صوت ياقوت أفندى الخافت يسترحم ويدق المسكين الباب دقا خفيفا وقلما يفوز بالدخول ..... شاهدنا كل هذا وروعنا له وأصبح حديث الرجل على الأفواه . فمن قائل إنه يمسح البلاط ويعنى بشئون المطبخ ومن قائل إنه قعيد فى المنزل لا يفارقه إلا بأذن زوجته بينما هى حرة طليقة ليس له عليها من سلطان !!

وإنى لأذكر أن ياقوت أفندى زارنى مرة قبيل وفاة زوجته ليعتذر عما تسببه هذه الزوجة من جلبة وصخب لجيرانها فى ساعات متأخرة من الليل وهى تنتهره وتكيل له السباب وقد تشبعه ضربا ولكما . وكان الرجل يتحدث عن كل هذا فى شىء من البساطة ثم يقول فى مرارة : « انها عصبية ياسيدى ، ولست أنكر أننى شرابة خرج وقد سمعت ذلك مراراً من الناس وحتى من بناتى !! » ثم توقف هنيهة وعاد ياقوت

أفندى يقول « حدث منذ شهور وأنا أهم بدخول أحدى المقاهى أن سمعت بعض أصدقائى يتهامسون فيما بينهم ورنت فى أذنى الكلمة المشئومة (شرابة خرج) ثم أمسكوا عن الكلام . ولعلهم استشعروا خجلا عندما طلعت عليهم ولكنى بدأتهم بالتحية وجلست إليهم ولعلهم حاولوا أن يعتذروا ولكنى لم أمكنهم من ذلك ، فقد طرقت وإياهم موضوعات عديدة ثم قمت وودعتهم وخرجت .. وبعد أسبوع من هذه المقابلة زرت أحد هؤلاء الأصدقاء فى بيته وأراد أن يعتذر لى فقد حسب أنى إنما حضرت لأعتب عليه . ولكني لم أدعه يعتذر وقلت له : « لست أنكر يا صديقى هذا الضعف من جانبى ؛ ولست ألومك أو ألوم غيرك من الناس ولكنى أطلب إليك فى شىء من الرجاء أن ترشدنى إلى ما أدفع به هذا الضعف واستعيد به هذه الرجولة التى فقدتها ! » فطيب خاطرى وهدأ من روعى وقال لى : « أن أمرك يا صاح هين ميسور — فما عليك إلا أن تتكلف مظهر الرجل الشديد المراس وتأخذ كل شىء بالشدة وإياك ان تتراجع عن أمر أصدرته ولو أدى إلى فراق بينك وبين زوجك ! » ظل هذا الصديق يوحى إلى بكل ما يعرف ويضرب المائدة بقبضة يده فى قوة حتى خلت نفسي أمام شمشون الجبار . وفجأة فتح الباب ودخلت منه امرأة فى وجهها قسوة بالغة وقالت لصديقى الواعظ الشجاع فى خشونه وقد ارتجف خوفاً « لم كل هذه الجلبة وهذا اللغط يا شرابة الخرج ؟ ! ؟ ! ما حسبتك خطيباً بارعاً إلى هذا الحد ! وأمطرته وابلا من السباب والشتائم وأشاحت بوجهها عن هذا البطل وحدجتنى

بنظرة فاحصة أشعرتنى كأننى أمام امرأتى . . . وخرجت هذه المرأة وهرولت أنا مسرعا وكنت أحسب أنى وحدى هذه الشرابة . . . »

كان ذلك شأن ياقوت أفندى قبل أن يفجع فى زوجته فلما فى فقدها ظن بعض صحبه أنهم ملاقوه على أحسن حال بعد أن استعاد حريته المفقودة ! ولكن خاب ظنهم عند ما وجدوه يبكى بكاء الأطفال نادباً سوء طالعه . . ويهذى كالمحموم وقد جل الخطب وتعاظمت البلوى فأيقنوا أن الرجل لا بد لاحق بزوجته عما قريب . ولكن مرت الأيام فاذا الرجل قد تغير وتبدل وعاد إليه مرحه . وإذا هو يفاتح معارفه بأنه معتزم الزواج ليسرى عن نفسه فى حياته الجديدة . وقد تزوج الرجل فعلا ولاحظ أهل العمارة سكوناً شاملا يخيم على مسكن ياقوت أفندى بعد زواجه فحمدوا الله على هذا الهدوء الذى لم يعرفوه منذ حل ياقوت أفندى فى هذه العمارة . . .

وحدث ذات يوم أن فتح باب شقة ياقوت أفندى وكان هو هذه المرة الذى فتح الباب ، وكان عصبيا على غير عادته . وقد ظهرت بمدخل المسكن زوجته تذرف الدمع السخين ، والرجل يأمرها أن تبرح مسكنه إلى غير رجعة ، ثم أغلق الباب ، وهبطت المسكينة السلم و بارحت الدار ، و بعد فترة من الزمن تزوج ياقوت أفندى . ولكن هذه الزيجة . فشلت كسابقتها .

وأخيراً ظفر الرجل بشريكة سليطة وعدنا من جديد نسمع اللطمات والعويل وعاد صوت الباب بين الآونة والأخرى يسمع داوياً

إذ يفتح ، فيلفظ جسم ياقوت أفندى خارجه ، ويغلق بعنف وشدة ، ويعقبه صراخ المسكين ، ثم يتبع ذلك فترة من السكون العميق ، ثم نسمع طرقات خفيفة على باب المسكن كأنه يستجدى فتحه راجياً الدخول .

وها قد مرت خمس سنوات على هـذا الزواج الأخير الذى وصفه لسان طويل بأنه سعيد وسعيد جداً ! ! ! وهكذا أستعرض مراحل حياته الزوجيه وأستعرض كذلك ما قيل بنادى الجامعيين . ولا أستطيع أن أربط تماما ما بين هذه الصور المختلفة وهذه الآراء المتضاربة . على أن المقطوع بصحته أن ليس هنالك رجولة مطلقة فى الرجل ، ولا أنوثة مطلقة فى المرأة ، لأن هذا وذاك يسلكان طريقهما فى الحياة وفى نفس كل منهما بعض صفات الجنس الآخر ، حتى إذا ما زادت هـذه الصفات غير الخاصة بأحد الجنسين لسبب نعرفه أو لا نعرفه ، كان ذلك شذوذاً واضحاً فى الطباع قد يؤدى إلى هدم كيان الأسرة . والويل كل الويل للأسرة التى منيت برجل زادت فيه صفات الضعف والخنوع والاستسلام التى هى من مميزات المرأة عادة ما دامت الطبيعة قد وضعت الرجل أصلاً من الأسرة فى مكان ربها الأول والأخير .

بقى لى — بعد هذا — أن أتساءل كيف ارتضى ياقوت أفندى لنفسه هذه الحياة التعسة فى ظل زوجة متمردة عربيدة ؟ ولم يحاول من جانبه التخلص منها مهما واتته الفرصة لتحقيق ذلك ! . . . الواقع أن المسكين لم يرتض لنفسه هذه الحياة ، وإنما أرغم على قبولها إرغاماً وسيق إليها قسراً تحت تأثير عوامل خفية قد تسكون من عمل العقل

الباطن أو من أشياء أخرى ، ولو أنه أتيحت له فرصة انتقاء شريكة له من بين مئات الفتيات لما اختار من بينهن عند أول نظرة إلا أشدهن مشاكسة وأكثرهن عناداً ، فلو أنها استجابت له لسرعان ما يتزوجها ويتهالك عليها ، ويتفانى فى حبها ، وتكون هى من الذكاء بحيث تلمس منه هذه العاطفة الجامحة فتزيد من دالتها عليه وتبخل على هذا الحب الوامق بغرامها ، وتعطيه من هواها بمقدار ، والرجل قانع بكل هذا وراض . وهكذا يتم لها الظفر فلا يستطيع ياقوت أفندى أن يفك إساره ، وما أقسى الحب الشهوانى من جانب واحد إذا ما استغله الجانب الآخر لعبثه وهواه ومما لا شك فيه أن ياقوت افندى من هذا الصنف الذى يجد من العذاب سلوى ويلذ له أن يشكو وقد يثور أحيانا على أن يعاوده الهدوء عند ما تتكل به هذه الزوج الطاغية ، فهو من هذه الناحية يعانى هذا الشذوذ النفسى الذى يأخذ على المرء مشاعره ويغدو ضحية لهذا النوع من الحب المريض .

ولا يهولنكم أيها الذكور من بنى الأنسان ما عرفتموه من أمر ياقوت أفندى فان فى عالم الحيوان عجباً وفى الطبيعة ما هو شر من هذه المرأة التى سامت زوجها سوء العذاب وما هو أتعس من ياقوت أفندى ، وقد أدركتم ما فى عيشه من شذوذ ! ولتعلموا أن أنثى العقرب مثلا تقتل ذكرها بعد عملية التزاوج ، وكذلك تفعل العناكب والحشرة المعروفة عند العامة (بفرس النبى) وليس القتل هنا عملا شاذاً بل هو ظاهرة عادية لا يثور لها باقى الذكور .

ولا يمكننا أن ننسب بأية حال من الأحوال إلى جميع بنات حواء هذه الصفات المنكودة ، من تعذيب وتنكيل و بطش بأزواجهن الوادعين كما تفعل هذه الحيوانات — فما كل أبناء آدم ياقوت أفندى وما كل بنات حواء زوجته العانية . . . والواقع أن هذين الشخصين من الندرة والغرابة بحيث أصبحا حديثاً للناس ؛ والنادر عادة جذاب يستهوى الأنسان منذ الأزل . ولقد عبر لنا فنان مصرى قديم قبل ألفى عام عن يا قوت أفندى وأشباهه فأعمل ريشته وأخرج لنا هذه الصورة الرمزية الفريدة . . . تلك الصورة التى رأيتها فى مدينة (الآله توت) بتونة الجبل ، ولم يحاول الدليل أن يعقب عليها حينذاك فقد كنا يومئذ خليطاً من الفتيات والفتيان . . . هذه الصورة البسيطة التى لا تزال ألوانها زاهية صورة الفرخة فى لونها البنى الداكن وهى تتحفز للشر رافعة جناحيها وقد شهرت إحدى رجليها فى وجه ذلك الديك الوادع الواقف أمامها فى ريشة البرتقالى اللون ناظراً إليها فى هدوء واستكانة !

أدركت الآن وأنا أفكر فى ياقوت افندى وزوجته أن هذه الفرخة ما زالت تعيش بيننا وتملأ صيحاتها المنكرة أرجاء هذا العالم . وما أشقى بنى الدنيا بفرخة توت . . . ولكن . . . فى ثياب إحدى بنات حواء !!!

الكلب الرخيص

كنا فى دار أخ لنا نسمر على عادتنا ، حين فتح باب الغرفة التى كنا فيها وتقدم الخادم ينبئنا بقدوم الدكتور (شفيق) الذى لم يلبث أن ظهر على أثره وأطل علينا برأسه وعاجلنا بقوله « أن كلبى معى ، فأن أنتم رخصتم له فى الدخول دخلت معه، وأن لم تفعلوا رجعنا أدراجنا! »

خففنا جميعاً للترحيب بالضيف الكريم الذى طالما تحرقنا شوقاً إلى لقائه لطول ما استعتب عنا ، وهو المحدث الخلاب والراوية الجذاب والناقد اللاذع الذى يذهب فى نقده — فى بعض الأحايين — إلى حد من الأغراق والمغالاة لا يسهل على السامع تصديقه ، وكثيراً ما يتطرف فى النقد فلا يعفى منه أحدا حتى نفسه ! وهو ولوع بالثرثرة التى طالما عابها على النساء . . وما يدريك لعله أراد — بما يحمل على المرأة منها — أن يؤثر بها نفسه وينفرد بها دون غيره . وفى الحق أن ثرثرته كانت طريفة مستساغة فيها خيرها ولها مغزاها ، كانت كلها نقداً للحياة ونظمها وأساليبها ، وكان لا يتحرز من أن يطلق لسانه بما شاء أينما كان .

ذلك كان شأن الدكتور (شفيق) الذى تستمتع به الآن نواظرنا فى جلسته بيننا فى قاعة الاستقبال ، وقد أحاط السيدات والأوانس بكلبه الأرقط ورحن يداعبنه ويدللنه ويمسحن بأكفهن البضة شعره الأجرد الذى تنتشر البقع السود فى رقعته البيضاء ... وأنه لكلب من نوع نادر ، وفى الحق أن جمال مظهره ليستوقف النظر وهو يوزع على الجمع

نظرات حائرة حيرة المتسائل عما حوله ، وما حاول قط أن يأذن أذنيه أو يحرك للنباح ما ضفيه .. ولكنه جعل يبصبص بذنبه فى حركة وادعة وانية .. وتقدمت إحدى السيدات من الدكتور تسأله « أنى لك هذا الكلب الظريف يا دكتور ؟ ومن أى أنواع الكلاب هو ؟ يخيل إلى أنك ابتعته بثمن باهظ .. أليس كذلك ؟ » فأجاب دون أن يرفع اليها طرفه « أما عن نوع هذا الكلب فأنه من ذلك النوع الشهير بحب الخيل وشدة ولعه بها فهو يلازمها أينما تكون ولا ينفك معها فى حظائرها يلعب بين قوائمها ويرفه عنها عناء ما قاست طوال يومها من جهود مضنية فى الغابات . وقد كلت متونها من ركض الأشراف ، وهأنذا قد جعلت من كلب الحظيرة كلب (صالون) كما يجعل أثرياء الحروب نفائس التحف ورائع التماثيل فى أركان المطابخ وفى (دورات المياه) !! ثم صمت قليلا واستأنف حديثه عن الكلب الجميل النادر فقال « ولقد شريته بثمن نادر كذلك ! » وهمس فى أذنها « أنه ثمن بخس على الرغم من ندرة نوعه ومن أنه انحدر من سلالة أورو بية ! » وتقدمت إلى الدكتور آنسة ترجوه أن يبتاع لها واحداً من تلك الكلاب ، فهب زائر يقول « أعفونا يا رفاق من أمر هذه الحماوات ، ودعونا نستمتع بشىء جديد من أحاديث الدكتور الشائقة فنحن أشوق ما نكون إليها ! » فلم يمهله الدكتور إلى أن يتم حديثه بل قاطعه على مألوف عادته وقال « من نحو شهرين حضرت إلى عيادتى أمرأة تحمل على كتفها طفلا عليلا وكان معها « عم مدبولى » الاسكاف ، وهو علم بارز فى الحى الذى تعيش فيه تلك المرأة ، معروف

بين الفقراء بلقب (الحكيم) ... ومن يوم أن درجت من المهد وأنا أعرف هذا العم مدبولى — بحثت حال الطفل ولا أريد أن أطيل عليكم فأخوض فى موضع علم الأمراض ولكنى أجتزىء بتعريفكم أننى وجدت مريضى الصغير مصاباً بالمته إلى جانب ضعف الأعصاب وبحثت كذلك حال الأم وكلفتها أن تأتينى بزوجها ، فأتت به فى اليوم التالى فإذا هو مثل موفور الصحة ، فأشرت عليها بأجراء بعض التحليلات ؛ ولشد ما استعصى علىّ الأمر حين جاءت نتيجة تلك التحليلات سلبية ! »

طفت على المجلس موجة من اللغط والتهامس بين الحضور ، وانفجرت سيدة نصف أمضها هذا الحديث فقالت « ما هـــذه المقدمة الجافة ياعزيزى ؟ ! ! يخيل إلى أنك ستنتهى بنا إلى التحدث عن مواعيد الزيارة فى العيادة وعدد المرضى وما تدفع من ضرائب ! » وعقب آخر فقال « على رسلكم ياسادة ، فقد فاتكم أن الدكتور سينتقل بكم من صحراء قاحلة قاتلة إلى واحة ندية وارفة ، فدعوه يربكم يتم حديثه ! » وقالت آنسة « لقد كان جديراً به أن يواصل حديثه عن الكلاب فالحديث عنها أشهى وأمتع من حديث الأمراض والعلل ! » ثم غادرت الغرفة فتبعها كل أفراد المجلس اللطيف ... وهنا اعتدل الدكتور شفيق فى مقعده وهو شاخص ببصره إلى الباب وقال « لقد أخرجت حواء القديمة آدم القديم من الجنة ، ولقد انتقمت بمقدمتى هذه لآدم فأخرجت بها حواء الجديدة من هذه الغرفة ! ؟ ؟ فهل أحنق هذا أحدا منكم على يابنى آدم ؟ » ثم أشعل لفافة تبغ وراح ينفث دخانها ويراقبه فى هدوء متكلف . ثم استرسل

يقول «علام كل هذه الضجة يا أصحابى وفيم كل هذا التبرم ؟ لقد ضقت بانواع الأقاصيص المائعة المليئة بالغرام الممل، وما أخالكم تريدوننى على أن أحدثكم عن الربيع وأزهاره وجناته وأطياره وجداوله وأنهاره ، ولا عن العزول الماكر والحبيب الهاجر والفرار والانتحار ! فكثيراً ما سمعنا هذه النغمة المملولة وعشنا فى هذه الأجواء المرذولة . ولقد آن لنا أن نهدف فى القصة إلى لون جديد ونتوجه بها إلى غرض اجتماعى مفيد . ولكن ما دمتم لم تبرءوا من المرض بقصص الربيع وحديث الورود والرياض فسأحمل نفسى على أن أمزج لكم فى قصتى هذه شيئاً منه إذا رغبتم فى أن أقصها ؟ » فأمن الجميع على قوله ومضى هو واصلا ما انقطع من حديثه فقال « استعصى على داء الطفل المسكين لأنى لم أظفر من أمه البائسة فى استيضاح تاريخ حياتها بأكثر من أنها نشأت فى البيت الذى كانت أمها تعمل فيه من قبل ؛ وأن هذه الأم قد ماتت وخلفتها وهى لم تتخط الخلقة الأولى من سنيها . وحين لحظ عم مدبولى يأسى ولمس رغبتى الملحة فى الوقوف على تاريخ حياة المرأة .. ولعله أدرك ما قد يكون فى ذلك من فائدة فى علاج الطفل المريض ، وعد بأن يعود إلى زيارتى مرة أخرى فى فرصة عاجلة وانصرف »

« بر الرجل بما وعد وحضر » ثم بدت على شفة الدكتور شفيق بسمة خبيثة واسترسل يقول « وكان الربيع وكانت الأزهار وكان نداء الحب ترجعه الأطيار فى أغاريدها العذبة وراحت الفراشات تنتقل مرفرفة من زهرة إلى زهرة وفى هذا الجو الجميل المنعش تدفق الفتيان والفتيات

على الحدائق يشاركون الطير والفراش والزهر فى نداء الحب كأنما يدفعون إليه دفعاً ، وهم يرفلون فى حللهم الزاهية وقد علت وجوههم نضرة النعمة وشاعت فى نفوسهم نشوة الفرحة ، وكانت هناك فتاة قد غمرها الجمال وأرهفها الدلال وفتنتها عراقة البيت الذى تنتمى إليه ، فكانت حيث سارت تنثر بسماتها من غير حساب على الأفواه الفاغرة المتلهفة إلى اختطافها كانت هذه الظبية الغريرة لا تعرف عن الحب أكثر من أنه وسيلة إلى إطفاء غلة الشهوة الجامحة فى مثل هذه السن الحساسة . والذى أعجب له ولا أعرفه، هو من أين انحدرت إليها هذه العاطفة الجارفة إذ كانت ترى فى كل ما حولها حبيبا ما دام يبادلها حبا بحب وتقربا بقرب . ولم تجد فى الجمع عازلا واحدا فأنها لم تدع أحدا إلا أرضته وحاول أهلوها كبحها بكل الوسائل فما أجدت وسيلة ، ولا نجحت فى فتنهم حيلة . وكانت هذه الفتاة الشاردة واسمها (توتو) كالزهرة التى تفتحت عنها أكمامها لتستقبل الحب من كل ما عداها من الزهور ولعلها غالبت هذه العاطفة ولكنها غلبتها . . . كانت توتو وأترابها يذرعن الحدائق جيئة وذهابا وكان ينبعث من عينيها بريق فاحص ثم لا يلبث أن يقع بصرها على شاب وسيم أو دميم ، غوى أو تقى ، حتى تتراسل النظرات وتتجاوب البسمات وما هى إلا أشارة والتفاته تنتقل بعدها عن سربها إلى معزل تنفرد فيه مع أحد أحبائها . وكذلك يكون شأن غيرها؛ وتتعدد المناورات وتتكرر المداورات كلما لاح لإحداهن صيد . وقد أطلق على توتو اسم (توتو الباشا) تشبها بكلبة (لولو) لأحد الباشوات كانت فى تلك الحديقة إذا سارت

سار فى أثرها جمع غفير من الكلاب يحاول كل أن يظفر منها بحب الربيع . انتهى الأمر بتوتو إلى مثل ما انتهى بالزهور و بالطيور و بكلبة الباشا ... إلى بذور وأفراخ وأجراء . . انتهى بمولود خرج إلى الوجود وليس يعنينا ذكراً كان أم أنثى ، ولكن المهم أنه لم يكد يتنسم نسيم الحياة حتى أخذ فى لفائفه إلى أبواب المساجد أو الكنائس والتقطه بعض السيارة فضموه إلى أضرابه فى أحد الملاجىء .

انتهى هذا الربيع وجاء بعده ثان وثالث ، وفى كل عام تستقبل هذه الملاجىء تلك الهدايا الالقيطة أو الضحايا البريئة التى تمدها بها أمثال توتو وغيرها .

لم تكن هذه التوتو من نسج خيال عم مدبولى ، فهو رجل لا يعرف هذه السلع التى خلقت من غير طينته ونشأت على غير شاكلته ، ولكنى سقت لكم هذا الحديث لمماثلته لما قصه على عم مدبولى ، فقد حدثنى هذا الكهل الطيب القلب عن خادم كانت تعمل عند إحدى الأسر وكانت تشبه توتو فى جموح العاطفة ، كانت منهالكة لا ترفض حب أحد من الناس ما دام فى ذلك شبع لنهمها الحيوانى ، وكم نصح لها النصاح فلم تلق إليهم بالا لأن عاطفتها الفائرة كانت أقوى من كل نصيحة وقد أطلق عليها فى الحى اسم (كلبة عم امام) . ، ، وكلبة (عم امام) هذه كانت من الصنف البلدى الرخيص الذى لا يسلم من القذف بالحصى ومن اللكز والضرب ولكنها كانت — مع ذلك — تتمتع مثل (لولو الباشا) بعدد وفير من كلابها البلدية تجرى فى أعقابها لتظفر منها بنداء

الحب . وهذه العاطفة ليست وقفاً على الكلاب المدللة ، ولكنها مشاع بين طبقات الكلاب كما كانت مشاعاً بين توتو الواسعة الثراء العريضة الجاه و (خضرة) الخادم الرقيقة الحال الوضيعة النسب !!

لم يتحدث عم (مدبولى) عن الربيع والزهر والفراش ولم يحاول أن يطلى حديثه هذا الطلاء الخلاب كما صنعت معكم لأرضى رغبتكم فى سماع قصة شائقة . أما الرجل فلم يقصد إلى ذلك ولكن قصد إلى الحقيقة المجردة تجرى لسانه بروحه الطيبة وسذاجتها فقال إنه لا يفهم كيف سقطت هذه الفتاة إلى هذه الهاوية، وكيف جعلت أصبعها أذنها فلم تكترث لأحاديث الناس عنها وتنديدهم بفساد خلقها ! ولكن لعلها كانت مسوقة إلى كل هذا بعوامل خفية لم يكن فى طوقها أن تدافعها . انتهى الأمر بها إلى مثل ما انتهى بتوتو وباءت بتلك الثمرة المعروفة فتمخضت عن طفلة أشفقت الأسرة التى كانت تعمل عندهم أن يخرجوها بها ورأوا من الإنسانية أن يبقوا عليها وترب هذه الطفلة فى كنفهم وكذلك نمت هذه الطفلة البريئة فى هذه الجنة العريضة وترعرعت تحت ظلالها . وفى إحدى الليالى جاءت خضرة إلى عم مدبولى تسر إليه أن الجناية قد تكررت وأن أحشاءها تنطوى على جنين جديد ، وأنها تخشى ألا تغفر لها خطيئتها هذه المرة إذا افتضح السر فتطرد شر طردة . وأعملت رأيها على أن تختفى ، فغربت عن الحى شهراً أو نحوه ، ثم عادت بعده إلى عم مدبولى تسر إليه ثانية أنها وضعت مولوداً وألقته على عتبة باب أحد المساجد وراحت ترقبه عن بعد حتى عرفت أنه قد نقل إلى

أحد الملاجئ وسجل باسم وتاريخ عرفتهما . . ويقول عم مدبولى « ثم ماتت هذه الخادم فكنت أرعى ابنتها وأعطف عليها . ومن عجب الأمور أن هذه الابنة لم ترث خلق أمها ، ولم تشب على ما شبت عليه ، بل كانت تتحلى بخلق كريم وعفة يندر أن توجد بين فتيات طبقتها .

وكبرت الفتاة وتلألأت نضارتها وكانت على جانب موفور من الملاحة فحاول عدة من الشياطين إيقاعها فى حبالات غرامهم فلم يفلح منهم أحد ، لأن هم الفتاة كان محصوراً فى الظفر بزوج لا بخليل . . . وفى ليلة ما جاءت تدعونى لأن أكون أحد شهود زفافها فى هذه الليلة ، فما أن ذهبت ورأيت العريس وعرفت اسمه حتى اقتربت منه وجعلت أتفرس فى مقاطع وجهه فإذا هو يصور لى خضرة الأم الراحلة . فداخلتنى ريبة ولكنى لم أشأ أن أقلب هذا العرس مأتماً ، واعتصمت بالصمت ثم اعتذرت لمرض فجائى وغادرت البيت لأفر من الشهادة على أمر حرمه الله ، ولو أنى لم أقطع بصحة ماخامرنى من الشك ولم أبح بشىء ممارابنى من أمر الفتى إلى أحد ، ولم أحاول أكشف سره لأحد ...

تم الزواج دون أن أشهده . فان تكن شكوكى صادقة فها هى لعنة الله قد صبت على هذا الزواج المحرم ! »

وواصل الدكتور شفيق الحديث فقال « خرج عم مدبولى بعد أن عرفت منه اسم الزوج وسنه واتصلت بالملجأ لأتم بحثى ، فكنت موفقاً جد التوفيق ، فقد صدقت شكوك هذا الرجل الطيب وتحققت مزاعمه ، ويجدر بى فى هذه المناسبة أن أكشف لكم عن سر ضعف النسل فى

كثير من الحالات وتعرضه للعلل الجسمية والخلقية وغيرها — فكلنا نعلم أنه فى بداية الخليقة وفى العصور الأولى لم يكن هناك حرج فى أن يتزاوج المحارم ، فيتزوج الشاب أخته أوعمته أو خالته ولم يؤ به إلى الصلة القريبة الكامنه فى الدم و إلى تأثر النسل بهذه العلاقة وظهور بعض الصفات الشاذة التى تنجم من هذا الاختلاط .

وقد دلت البحوث المستفيضة التى قام بهـا علماء الوراثة ودعموها بالأدلة والأسانيد على صدق هذه النظرية ، فأن علاقة الدم إذا قرب بين الأبوين كثيراً ما ينتج نسلا ضعيفاً فيه استعداد للأمراض ولظهور العيوب الخلقية والانحطاط العام فى درجة التناسل بل و إلى العقم فى الأجيال التالية . . . أما إذا بعدت هذه العلاقة فأن هذا النسل الخليط يكون فى الغالب قوياً يفوق أبويه فى كثير من الصفات كالمناعة ضد الأمراض والقدرة على مقاومتها وسرعة النمو وقلة الوفيات .

وقد سجلت مراجع التاريخ أن بعض الأسر المـالكة من قدماء المصريين كانت تجرى على تزويج الأخوة من أخواتهم فأدى ذلك إلى انقراض هذه الأسر . »

خيم السكون على جو الغرفة وساد صمت رهيب و بدت على الوجوه علائم الدهش إلى أن انفجر صوت الدكتور شفيق مرة أخرى وهو يقول « هكذا يا سادة يكبر ابن توتو أو ابنتها و يترعرع ابن خضرة أو ابنتها ثم تغادر هذه المخلوقات البريئة دور اللاجئين — دور الشفقة — دور الطفولة المشردة — أو تخرج من كنف الأسر الكريمة التى آوتها

وتنتشر فى الأرض تبتغى من فضل الله وتكدح فى طلب الرزق وقد يجمع بينها الطواف وهى لا تدرى من أمر ماضيها قليلا أو كثيراً . وقد تتجاوب العواطف فيتزوج الأخ من أخته وهو برىء ، والأب من ابنته وهو برىء والابن من أمه وهو برىء ، ويخرجون للعالم أنصاف مخلوقات ضئيلة مريضة لا تصلح للنضال فى الحياة والكفاح فيها ! »

« وها هو ذا كلبى الجميل الذى انتزع إعجابكم سيدات ورجالا ، لم أحصل عليه بالثمن البخس إلا لأنه كان ضحية من ضحايا الزواج القريب فقد كان من عادة صاحبه الذى يتجر فى الكلاب أن يدخل فى كل عام على كلابه دماً جديداً فيستقدم المالك ذكراً جديداً من أوربا. واشتعلت نار الحرب وامتنع الاستيراد فلم يجد إلى التجديد الذى تعوده سبيلا ! فكان لابد له من أن يتوالد كلابه بالتلقيح القريب ، فلم تلبث أن ظهرت فيها أفراد صم لا تسمع فأرغم على قبول الأثمان البخسة فيها . والذى لاشك فيه أن علة الصمم كانت كامنة فى هذه الكلاب وساعد على كونها تجديد الدم الذى كان يقوى به نسلها كل عام ، فلما انقطع هذا التجديد واستمر التزاوج بين الكلاب الأقارب لم يقو النسل الجديد على مقاومة العلة فطفت وظهرت .

ولقد أدركتم سر رخص كلبى وإنى وإن ارتضيت أن اشتريه بهذا الثمن البخس إلا أنى أقسم لكم أنى لا أرتضي أن أشترى بعلم واحد هذا الطفل المريض الذى أعجزنى علاجه ولا أستطيع أن أسميه مثلا « الطفل الرخيص » لأنه لايباع ولا يفيد منه الناس شيئاً ! » .

obeikandl.com

خيم السكون على المكان مرة أخرى وعلت الوجوه كآبة وأسى. ولعله طاف بكل رأس شيء من ذكريات الماضي وأن الملاجئ ودور الشوارد قد تكون قد ظفرت منهم بشيء من مخلوقاتها البريئة، وأنها سوف تخرجهم يوماً إلى الأنسانية أنصاف مخلوقات مريضة!

قطع الدكتور هذا الصمت أخيرا وقال «هيه ياسادة... ألم يأن أن نهدف بالقصة كما قلت لكم إلى توجيه اجتماعي مفيد، ونترك الربيع والورود والرياحين والغزال والمنتحرين.. ولو إلى حين!»

الشخص الثالث

لم يكن قد مضى على إقامتى فى مدينة ليدز أكثر من شهرين قضيتهما بين الجامعة والمنزل ، ما حاولت أن أختلف فيهما إلى مراقص تلك المدينة الجميلة ومشاربها وملاهيها لألهو بعض الوقت ، وحتى عطلة آخر الأسبوع كنت أقضيها فى غرفتى بين الكتب . ولم يكن يعترينى من كل هذا ملل أو سأم ، فقد درجت على مثل هذا النوع من الحياة منذ الصغر ومنذ أدخلت المدرسة فى مصر ، وتعودت حياة الجد ، ولم أكن لأغيرها بعد بعد أن رأيت أن النجاح كان حليفى فى كل مراحل حياة الدراسة . وكان أبى ـ رحمه الله ـ يفخر بى ويشجعنى على هذا ، ويصرفنى بشتى المغريات وصنوف الحيل عن الألعاب الرياضية وغيرها من الجمعيات الثقافية . وقد أدركت الآن أنه وإن يكن النجاح قد حالفنى ، فقد خرجت من معركة المدرسة بنظر قصير وجسم هزيل وخبرة قليلة بشؤون الحياة .

وفى يوم الأحد التالى لانقضاء هذين الشهرين كنت جالساً فى الغرفة أطالع كعادتى ، وإذا بصاحبة المنزل تدق الباب وتستأذن فى الدخول ، وقفت لاستقبالها ؛ ودخلت وقالت لى وفى صوتها رنة العطف ـ وفى الحق أن هذه المرأة كانت لى فى هذه الغربة أماً مؤنسة :

« إنك يامستر ريدى غريب الأطوار ! إن أهالى ليدز فى مثل هذا اليوم يغادرون المدينة فتياناً وفتيات ، أزواجاً وزوجات ومعهم أطفالهم

إلى الريف الجميل يستمتعون بمناظره الخلابة . وإنى لأعجب أن يقبع شاب فى مثل سنك فى غرفته يوم الأحد كما تفعل العجائز والمرضى ؛ وما كان أحوجك وأنت تدرس طوال الأسبوع إلى الخروج فى مثل هذا اليوم لتجدد نشاطك ! وقد تألمت لك وفكرت طويلا فيما قد تؤول إليه حالك إذا أنت انصرفت إلى الدرس وحده . وها أنت ذا ترى منظارك السميك وجسمك الهزيل ، فماذا أنت صانع بعد هذا ؟ يجب ياعزيزى أن تقرن الجد بشىء من اللهو البرىء . وكم يسعدنى أن يكون إلى جانبك فتاة طيبة الخلق ترتاد وإياها الحدائق أيام الآحاد والأعياد . وإنى موقنة بعد ذلك أنك لن تأسف على هذه الساعات السعيدة ... فبعد سنوات قد تتزوج وتكون لك أسرة وتثقل كاهلك هموم الحياة وحينئذ تفتش بين طيات الماضى عن هذه الساعات السعيدة ، وسوف تذكرها ، وستظل تذكرها دائماً ، لأنك لاتستطيع إلا أن تذكرها. وإنه ليسعدنى أن أخرج بك من هذه العزلة وأدعو إلى منزلى يوم الأحد القادم بعض الفتيات والفتيان ـ ومن بينهم فتاة من أسرة فى الريف كنت أسكن إلى جوارهم قبل نزوحى إلى المدينة ـ وقد اخترت لك هذه الفتاة لأنها جميلة وعلى شىء من الثقافة ، كما أنها على خلق كريم . فأن رغبت فى هذا فسأكتب لأبيها أطلب إليه أن يسمح لى بأن أضيفها عندى ليلة الأحد . وإنى إنما أفعل ذلك لأدفع عنك الضجر ، ولأدخل عليك شيئاً من السرور ، فهل أنت راض عن هذا ؟ وهل لى أن أكتب لأدعو هذه الضيفة الكريمة ؟ »

ثم أمسكت . وفكرت من جانبي فيما قالت ، وتذكرت أبي وشدة حرصه على أن أكون ذلك الطالب الذي يصل ليله بنهاره بين الكتب ، وذكرت كذلك أن النجاح كان حليفي في هذه الحياة المضنية الشاقة ، ولاح لي في هذه الأونة خيالي في المرآة ، فرأيت منظاري السميك وجسمي الهزيل ، وفي حركة عصبية قلت لصاحبة المنزل وقد انتصبت واقفة أمامي يشع من عينيها بريق فيه رحمة وفيه عطف كثير :

« إني راض ياسيدتي عن كل ما تقترحين ، وإني لك لشاكر ! »

وكان يوم الأحد ، وحضرت الفتاة فيمن حضر ، ونعمت مع الجماعة بأطيب وقت ، وانقضى اليوم على خير ما تنقضي به الأيام ، وخرجت أصحب الفتاة . وركبت وإياها قطار الضواحي ، وتعادلنا كثيراً في رحلتنا القصيرة ، فسألتني عن مصر وعن آثارها وتاريخها . ومر القطار ينهب بنا الأرض ، حتى إذا ما أشرفنا على قريتها طابت إلي في أدب جم وفي شيء من الاعتذار ألا أصحبها إلى منزلها ، لأنها لاتود أن تظهر مع غريب في طرق القرية الصغيرة ، وهي تخشى أن يؤدي ذلك إلى فسخ خطبة شقيقتها ، فقد يتقول الناس عليها وتلوكها ألسنة السوء . فنزلت على إرادتها ورجعت أدراجي بعد أن ودعتها في المحطة

نمت ليلتي نوماً هادئاً بعد أن فكرت طويلا في تلك الفتاة الفاتنة ، فلما أصبحت قابلت ربة البيت ، فابتسمت وسألتني :

« كيف حالك الآن يامستر ريدي ؟ »

ثم أردفت :

« هل لك فى أن أدعو صاحبتك مرة أخرى لتمضى عطـــلة آخر الأسبوع عندنا ؟ »

فأجبتها على الفور أجزل لها الشكر وأقول لها اسلى بربك وادعيها كل أحد ! وانحنيت وخرجت وهى تشيعنى بنظرات الأم العطوف ، ولـكن فى شىء من الخبث .

وحضرت نورا وكنت أخرج معها للنزهة فى الرياض ، واشتركت معها فى أندية رياضية عدة ، ولـكن ذلك كله لم يشغلنى عن الدرس والتحصيل ، وحمدت الله على ما آلت إليه حالى ، فقد زال عنى الهزال والضجر .

تعددت زيارات نورا لمنزلنا ، وتوثقت بينى وبينها صلات الود . وعند عودتى ذات يوم من الجامعة رأيت صاحبة البيت تستقبلنى بالباب لتقول لى إن والد نورا فى غرفة الاستقبال وقد حضر يريد مقابلتى ، فدخلت غرفتى وأنا أفكر فيما فاتنى به ، وأفكر فيما دعا هذا الرجل إلى الحضور وأنا لم أعرفه من قبل ولم نقدمه إلى ابنته ، وقد حذرت على ألا أصحبها إلى منزلها ، فما الذى حدث وأنا لم أفعل شيئا ألام عليه؟ جال كل ذلك بخاطرى وشاعت الهواجس فى نفسى وأنا رجل شرقى أحسب حساباً لكل خطوة فى مثل هذه الأمور ، وأعرف عواقب هذه المقابلات وأنا مازلت كذلك عضو بعثة وأخشى على مستقبلى ، فماذا عسى أن تكون نتيجة هذه الزيارة المفاجئة ؟ ثم طفقت أفكر وأخذت رأسى بين يدى وجعلت ألعن صاحبة المـــنزل وأنحى باللوم على نفسى أن قبلت

اقتراحها ؛ وتوهمت أن لعنة الله قد نزلت بى لأنى حدت عن الطريق التى رسمها لى أبى . وبعد هنيهة دقت صاحبة المنزل باب غرفتى ، ولعلها استبطأتنى وقالت :

« أسرع يامستر ريدى ، فأن والد نورا فى انتظارك ! »

أفقت من أحلامى ، و بدلت ملابسى ثم استجمعت شجاعتى وسرت فى خطى ثابتة إلى غرفة الاستقبال ، فرأيت رجلا فارع الطول ، يناهز الخمسين ، يخف لمقابلتى و يشد على يدى فى شىء من القوة ، ثم جلس وجلست ، و بعد فترة غير قصيرة قال لى فى هدوء :

« لقد أخبرتنى نورا كل شىء ! »

ولم يكد يتم كلمته حتى تصببت عرقا ، ولكنه عاد يقول :

« إنك كنت كريما ياسيدى مع ابنتى ، وقد أخبرتنى عن عنايتك بها ، وكيف أنك كنت تهب لها بعض وقتك وتسعدها ، وقد حضرت لأشكر لك صنيعك . وفى الحق يابنى أنى لاأستطيع أن أفيك حقك من الشكر ، فأنا أعيش وأسرتى فى جو يسوده الهدوء فى منزلنا الريفى ، ولم يكن ليختلط بنا إلا نفر قليل من أهالى القرية ؛ ولم يكن شىء من المرح يعرف طريقه إلى دارنا إلا بعد أن تمت خطبة ابنتى الصغرى ، وقد قدر لهذه الخطبة أن تفسخ . و برمت أسرتى بهذا الهدوء المطلق و بخاصة زوجتى فلم أجد بدا من أن أدعو أحد معارفى ليقيم معنا ونتقاضى منه أجرا فلا يستشعر خجلا فى ضيافتى التى قد تطول . وهذه عادة بلادنا نعمد إليها لنغير من جو الضجر ونقلل من هذا السكون الممل . وها قد عاد إلى

بيننا شيء من السرور ، وقد شكرت هذا الرفيق من قبل ، لأنه سرى عن زوجى وابنتى الصغيرة ، كما شكرت لك الآن مثل هذا الصنيع الذى قمت به نحو نورا ! »

ووقف الرجل وسلم وانصرف وأنا لا أصدق أنه ما حضر حقا إلا ليشكر وأخيرا انقشعت وساوسى وحمدت الله على هذه النتيجة .

سافرت من ليدز إلى باريس لأتمم بعض البحوث الخاصة برسالة الدكتوراه التى اعتزمت أن أتقدم بها إلى الجامعة بعد سنة . وانقطعت أخبار نورا عنى ولم نتراسل طوال هذه المدة ؛ ثم عدت إلى ليدز وقابلت الفتاة مصادفة ، فقالت لى إنها تسكن الآن مع أمها وأختها ووالدها الجديد فى المدينة وتركتنى مسرعة لأنها كانت على موعد مع أمها . ووقفت هنيهة أتبعها بنظرى وأنا لا أفهم مما قالت شيئاً ! ثم رجعت إلى غرفتى ، ودعوت صاحبة المنزل وأعدت على سمعها هذه الجملة التى قالتها نورا ، ورجوتها أن تفسر لى هذا اللغز وهل يستطيع الإنسان فى هذه البلاد أن يكون له والد قديم ووالد جديد؟ فضحكت وقالت لى :

« ليس فى هذا غرابة ، وسأحدثك عن ذلك كله . لقد أخبرك والد نورا أنه ضم إلى أسرته ضيفا ، وقد حدث ذات يوم أن تقدم الزوج إلى زوجته وقد نمت إليه بعض إشاعات ، أو لعله لحظ شيئاً من التغير فى سلوك زوجته ، فأخبرها أنهم لم تعد بهم حاجة إلى هذا الضيف بعد ، والخير أن يطلبوا إليه — بعد أن ينتحلوا له المعاذير — أن يخلى غرفته . ولعله لم يشأ أن يبوح لها بشيء من الشك فى أمرها ، فتعلل بأن ابنتيه قد

يتقدم من يطلب يد واحدة منهما ، واستحلفها بحبه أن تجيبه إلى طلبه. أما الزوجة فقد أجابت على الفور أنه إن فعل ذلك ، فلا بد لها من أن تهجر البيت وتلحق بهذا الضيف! ودهش الزوج لجرأة زوجته وصراحتها وقال لها : « إنما أتكلم عن رجل استأجر غرفة في منزلنا ، لا عن عشيق يقيم تحت سقف بيتي بين زوجي وابنتي ! وهل أستطيع أن أفهم من قولك هذا ، أن بينكما علاقة حب أو غرام ؟ وهل لك أن تصارحيني بكل ماحدث بينكما ؟ فظلت الزوجة هادئة فترة ، ثم مالبثت أن قالت لزوجها إنها تحب هذا الرجل ، وإنها لا تستطيع أن تفارقه أو تعيش بدونه لحظة واحدة ! فاعتلجت في صدر الرجل عوامل عدة من خير وشر أخذت تتناوب . وأخيراً انتصر عنصر الخير في صدر الرجل الذي كان يحب زوجته ويعبدها ، فاعتدل في مكانه وقال لها : « أواثقة ياعزيزتي أنه يبادلك هذا الحب ؟ » فأمنت على ذلك . فرجاها زوجها أن تدعو الضيف إلى مقابلته على انفراد ، فحضر وأراد أن يعتذر عن كل ما حدث ؛ ويقول إنه لم يقصد إلى ذلك ، ولكن الزوج قاطعه في حدة وصرامة ، وقال له: « لقد عرفت كل شيء ولست ألومك أو ألومها على عاطفة جامحة كثيراً ما تأخذ بلب الإنسان وتغلبه على أمره ، وليس لي إلا أن ألوم نفسي ، فأنا الذي مهدت لكل ماحدث ، وقربت بين قلبين كانا بعيدين . ولست أفكر ياسيدي في الانتقام من أحد بعد أن أربت سني على الخمسين ، ولا أذكر أن فؤادي انطوى يوماً ما على حقد أو ضغينة ، فما كان ليعرف موجدة أو يكن حفيظة . ولندع الكلام في هذا جانبا ،

وما أحسب أنك تهتم له الآن ، وقل لي بربك هل تحبها حقاً ؟ وإذا أنا أخليت سبيلها ، فهل تقبلها زوجاً ؟ وهل تعاهدني على ذلك كرجل شريف ؟ فإني أحبها كذلك ، ولا أرضى لها أن تعيش خليلة ! »

وذهل الضيف لما رأى من هدوء الزوج ، وزم شفتيه وظهرت على أساريره أمارات حزن عميق ، وخيم على جو الغرفة سكون لم يلبث أن بدده صوت الزوج يقول لصاحبه : « الكلمة الآن لك ياسيدي ! » ولكن الضيف لم يتكلم وظل صامتاً ، ولعله حاول الكلام فلم يقو عليه وأخيراً ركع أمام الزوج وفي عينيه دموع وأجهش يبكي وطلب إليه أن يغفر له زلته ! فنهره الزوج وقال له في خشونة : « مالهذا طلبت الانفراد بك ؛ وإني أطالبك الآن بأن تجيب على أسئلتي ! » فوقف الضيف ومضى يتمشى واستند إلى أحد المقاعد وقال للزوج : « أجل ! إني أحبها وسأتزوجها ، على شريطة أن تبارك لنا هذا الزواج ! » فتمتم الزوج ببعض كلمات غير مفهومة كأنما كان يصلي بينه وبين نفسه ليشد أزرها ، فقد كان يخشى على هذه النفس المطمئنة أن تنال منها تلك الصدمة فتوهنها ، أو لعل الزوج في صلاته القصيرة كان يبارك هذا الزواج المقبل الذي رسمه لزوجته ولهذا الرجل الماثل أمامه ؛ أو لعله في صلاته القصيرة كان يصب جام غضبه ويستنزل لعنة ربه على هذين المخلوقين اللذين حطما منه قلباً كان عامراً بالعطف والحب لأسرته الوادعة !

وخرج الرجلان وافترقا دون أن يتبادلا كلمة أو تحية . واعتزم الزوج أمراً أسره في نفسه ؛ وغادر منزله وعاد بعد أسبوع فقابل زوجه وقدم

لها وثيقة وقال لها : « ستجدين فى هذه الوثيقة ياعزيزتى ماتقدمينه إلى المحكمة برهاناً على خيانتى العهود الزوجية . فقد صاحبت إحدى بنات الهوى وعاشرتها بضعة أيام فى أحد الفنادق ، وقد أثبت كل هذا فى الوثيقة ـ فما عليك إلا أن تتقدمى بها للمحكمة مطالبة بالطلاق ؛ وستنزل على لعنة القاضى ؛ ولكنى سأتحمل هذه الصدمة ، وسأترك لك منزلى عن طيب خاطر حتى تنتهى المدة التى يحق لك أن تتزوجى بعدها نقضائها » ثم قبل زوجته وابنتيه ؛ وجمد الدمع فى عينيه وبرح المنزل بعد أن قدم لها هذه التضحية التى لم تكن لتظفر بزواجها الجديد بدونها .

وها أنت ذا ترى أن كل شىء قد تم ـ كما أراد الزوج وأرادت الزوجة ـ وها هى ذا نورا صديقتك قد انتقلت مع أمها وأبيها الجديد إلى المدينة ؛ وعاد الزوج القديم إلى منزله الريفى يعيش فيه كالراهب وحيداً إلا من رحمة الله !

وسكتت صاحبة المنزل . أما أنا فما زلت أذكر هذا الرجل الوقور الذى خف إلى ليشكرنى ؛ ومازالت ترن فى أذنى كلمات الشكر التى كان يتقدم بها للشخص الثالث الذى أدخل السرور على زوجه وابنتيه ، والذى غير الجو الهادىء الممل ، والذى سلبه اخيراً قلب زوجه التى أحبها وما زال يحبها !

هذا كساء الموتى !!

لقد كان أبي صيادا من أولئك الذين يذرعون شواطىء البرك والمصارف تحت وهج الشمس ، ومعهم شباكهم يبتغون من الله الرزق الحلال . وكثيرا ما كان يقطع يومه حافي القدمين ، ويعود إلينا في المساء ونحن تسعة أطفال ، وقد جلسنا حول أمنا ، ولم نكن قد تبلغنا في يومنا إلا بقطعة خبز مع شيء من الملح . كنا ننتظر قدومه وقد طلع علينا في لباسه الأزرق الزرى ، وكانت سحنته في ذلك المساء لا تبشر بخير ، فإنه لم يقرئنا السلام كعادته ، بل وضع شباكه ومقطفه . فهرولنا إليه فلم يعرنا التفاتة واحدة ، ودخل القاعة وجلس على الأرض وأخفى وجهه بين كتفيه ، ولعله كان يبكى . أما نحن فهرعنا إلى المقطف ونظرنا فيه فلم نعثر على الرزق الحلال ، وأدركنا أننا سنمضى ليلتنا هذه خماص البطون . وأنى لأدرك الآن — وقد كنت يومذاك طفلا صغيرا — ما عاناه أبي من شظف العيش وبؤس الحياة ، وما عانته أمي كذلك ، فقد أنجبت لهذه الدنيا تسعة أطفال أفنوا شبابها ، وقد كان عليها أن تعمل ليل نهار في الحقل ، وفي بيت العمده أمام الفرن ، ثم تعود إلينا وهى تسعل ، وكان على إخوتى أن يعملوا هم أيضا أعمالا شاقه لا تتفق وجسمهم النحيل في هذه السن الصغير . أما أبي فلم يكن ربحه كثيراً في عمله ، ولعله ناء بهذا الحمل الثقيل ، فما كان ليستطيع أن يمنحنا القليل من مطالبنا الضرورية ، فما هو إلا سلعة في سوق الحياة اليومية

يرتفع سعره و يهبط تبعا لما تجود به عليه شباكه . وإني لأضحك ضحكا كالبكاء عند ما أتذكر فكاهة هذا الصياد الذى ظل طول يومه يرمى شباكه ولم يظفر بشيء ، وقبل الغروب بقليل ألقاها المرة الأخيرة وأخرجها فإذا فيها نعل قديمة ، فاغتاظ المسكين لذلك وحنق أشد الحنق لهذا الحظ العاثر ، ثم ضحك وتعالك نفسه ، ولف الحذاء فى قليل من الحشائش ، وذهب إلى السوق ، وعرض رزقه الحلال على الناس ، فدهشوا بجرأته ووقاحته ، وحسبوه مجنونا ، ولكن الرجل وقف فيهم صائحاً : يا قوم إنكم تشترون قنفذ البحر و بلح البحر فلم لا تشترون نعال البحر ! ! .

وها هو ذا أبى المسكين لم يظفر الليلة حتى بنعال البحر ، فهو لا يساوى فى (البورصة) البشرية عن هذا الحذاء القديم . . . . .

فى هذه الليلة التى غاب قمرها ، واكفهرت سماؤها ، نمنا كما تنام الأنعام الضاله وصحونا فى الصباح على عويل أمنا ، فقد كانت المسكينه تنتحب وقد سالت عبراتها . ولما سألناها عن سبب حزنها : قالت فى مراره (إن أباكم قد عزم على هجر هذه القريه بعد أن شق عليه العيش فيها) خرج أبى من موطنه يهيم على وجهه ولم أره بعد ذلك ثم سمعنا بعد مده طويله أنه وجد جثة هامدة تطفو على النيل ، ولما عرف عمى هذه النكبة سافر من فوره — رغم كنافه — إلى هناك ودفن والدى واحضر هذا الصبى الذى هو أخى من أبى ، وعاد يحمل لنا أخا أبكما لم نره من قبل ، وأسطوره عن حياه أبى فى غربته . أما الأخ الأبكم ، فقد

تعلم صناعة أبيه وعرف بين الصيادين بأنه واسع الرزق جد محظوظ كانما يساق السمك إليه سوقا وكان رفاقه يتهامسون ويرجفون بأن جنية تدفع السمك إلى شباكه ؛ ولكنه لم يلبث أن اختفى من القرية دون أن نعرف مصيره . وأما الأسطوره فتقول إن أبى لما وصل إلى مستقره الجديد قصد على عادته إلى مصلاه عند الشاطىء بين يدى ربه خاشعا متورعا مقبلا بكل حواسه وروحه وقلبه على صلاته ، وصرفه الوقف عن كل ما حوله فلا يسمع من نبرات الحياة إلا همسات الموج ولا يمر به من شأنها إلا خطرات النسيم ، ولم يكد يختم الصلاه ويقرأ السلام حتى انفرج له أليم عن محيا لماح وجسم غض قد أسدلت عليه غدائر فاحمه ، فشده الشيخ ، ولكن إنسانة اليم ما لبثت أن دلفت إليه واظهرت عطفها عليه فهدأ روعه وأرجع فيها البصر ، فاذا هى خلق عجيب نصفه سمكه ونصفه بشر . . . وتعلقت به فحملها معه إلى بيته فى غفله العيون ، وجعلت تتراءى له فى صوره مؤنسه ، فلم يجد بأسا من أن يتخذها زوجة وظلت هذه الزيجة قائمة بضع سنين أحس فيها الشيخ أنه فى جنة الخلد ، فما مر بخاطره شىء تتوق إليه نفسه إلا وجده حاضرا لديه . رغم أن حوريته فى هذه الجنة لم تكن لتتفاهم معه بلسان ولم يسمع لصوتها نبره وأنجب الشيخ من حورائه ولداً لم يرث من أمه شيئا من حسنها ، ولكن منى ببكمها . ومر حين والشيخ لسره حافظ ولأمره كاتم ، إلى أن كان يوم خلا فيه بأحد خلصائه فافضى إليه بسريرة نفسه وشكا إليه صمت زوجه فدله ذلك الصديق على حيلة شيطانية تخرجها من صمتها . وأوصاه

أن يتظاهر بذبح ولدها . ولم يكد يضع السكين على عنق الطفل حتى صاحت صيحه أوقعت السكين من يده وثارت ثائرتها وأمرته أن يعيدها إلى اليم ، فحملها والأنفاس هادئه ، وقد أذنت صفحه البدر أن تزول وجنحت أسراب النجوم الى الأفول ، و بدأت جذوه الفجر تدب فى فحمة الليل حتى اذا أدركا اليم غاصت واختفت ثم انقطعت أخبار الرجل حينا إلى أن ظهرت جثته طافيه على الماء . ظلت أسرتى البائسه تعانى ما تعانى حتى قيض الله لنا بعض أهل الخير والإحسان. ولكن والدتى لم تعش طويلا لأنها اصيبت بذات الرئه، مرض الفقر والجوع، وهيهات لها أن تقاوم هذه العله بمعده خاويه وعمل يومى شاق دون أن يكلأها طبيب بطبه ورعايته .

وهب أنا استدعينا لها طبيبا وهى مصابه بهذا الداء الوبيل حيث تحتاج راحة تامة وتغذية كاملة ، أتراها لو أجدى طبه ودواؤه فى أنقاذها من الداء واجده ما تحتاجه من الراحه فى دور نقاهتها الطويل ، وهى مضطره أن تعمل وتشقى لتحصل على قوت يومها .

ولو استدعى الطبيب ليعود ثريه بدينة متخمة أمرضتها كثرة الأكل وقله العمل . أتراه يأمرها بان تحد من راحتها ، وتريح سيارتها وطاهيها ووسائل ترفها ، ليجدى طبه وعلاجه . . ؟

مريضتان : إحداهما تموت شبعا على وسائدها الحريرية فى قصرها والاخرى تموت جوعاً على كومه من القش فى كوخها فما جدوى الطب والطبيب فى مثل هاتين الحالتين فريضة الشبع والتخمه لا ترضى النزول

على مشورة الطبيب اختيارا ومريضه الجوع لا تستطيع تلبية نصائحه فقرا وإملاقا ماتت مريضه الكوخ. ودنت الإنسانيه قلبا مرهفاً تكفل بالكفن ، فهال أخى الصغير وابتسم ابتسامه الملائكه الطاهره وهو لا يدرك فى طهارته الموت ولا لباسه الجديد وحسب الكفن ثوبا جديدا يكسو جسمه العارى . ولكن الابتسامه ماتت على شفتيه وفرت من عينيه دمعه ساخنه حين قيل له « هذا كساء الموتى ، إذا أردت أن تكسى منه فمت . مت لتلبس رداء جديدا وتخلع عنك اسمالك الباليه ! ! » .

شرعت أخرج مع أخوتى نصطاد السمك كما كان يفعل أبونا ولم يكن حظنا أسعد من حظه ، فيخرج بعضنا بالشبك ويخرج البعض الآخر بعجينه السمك المسممة ليلقيها فى البركه فيلتهمها السمك الجائع مثلنا ، ويطفو على سطح الماء ، وقد انقلب على جنبيه بعد أن عمل فيه السم فخدر أو مات . وكان علينا أن نهبط الماء ونجمع هذا السمك المريض أو الميت ونبيعه للناس أو نأكله . وفى هذا ما فيه من خطر على الحياه العامه . فكم من ضحايا بريئه ذهبت على أثر أكله سمك ! ولكن الناس لا يقيمون وزناً لما يمكن أن يقال لهم فى صدد هذه الأسماك التى سممتها العجينة . فهم سعداء إذ يصيبون شيئا منها . وهل للفقير أن يختار ما يأكله ، وعندى أنه قد فقد حاسة التميز بين الضار والنافع ، فهو يأكل كل شىء كما تفعل الصراصير والخنازير .

مكثت بالقريه وأنا أعمل فى صيد السمك ، كما أنى لم أغفل عن

التعليم ، فكنت أتردد على (الكتاب) ، وتعلمت الكثير ثم تاقت نفسى بعد أن اشتد عودى إلى الرحيل من هذه القرية التى جثم فوقها الفقر ، ولم يجد الإنسان فيها مايشبعه حتى اضطرت الكلاب والقطط فيها إلى المهادنه ؛ إذ لم يكن فى تلك القرية من غـــذاء حيوانى لهذه المخلوقات يمكن أن يبعث بينها شجاراً ، فعمدت إلى السلام والتعاون فأصبحت الكلبه ترضع صغار القطه والقطه تعنى بأجراء الكلبه ، وانقلبت هذه الحيوانات آكلات أعشاب وفقدت أنيابها وما لهـا من قوة وحده . وما تدرى فقد تصبح هذه الحيوانات مجتره كغيرها من البقر والجاموس والماعز .

خرجت من القريه غير أسف بعد أن ودعت إخوتى وذرفت الدمع السخين على قبر والدتى ، ووفقت بعد جهاد طويل وكفاح مر مع القدر إلى عمل فى احدى المراكب التى تحمل العسل إلى العاصمه ، ثم بسم لى الدهر بعد عبوسه ، فعملت بحاراً فى إحدى السفن الشراعية الكبيرة فزرت اليونان والشام وغيرها ، ثم سكت محدثنا ووضع رأسه بين يديه وبكى طويلا ، فقد بعث الماضى بذكرياته الأليمه . ثم رفع رأسه وقد احمرت عيناه وشاركه الأفق فى حزنه ، فتورد هو أيضا وكذلك فعلت الشمس فاحمر قرصها .

ولم تلبث أن أختفت وراء الأفق ، كما تتوارى الآلام فى أغوار النفوس .

من يوميات مدرس :

العزول

أول يونيه عام ١٩٣١ :

ذهبت اليوم مبكرا إلى المدرسه على غير عادتى . حيث يبدأ عملى فى الساعه التاسعة ، وكان بواب المدرسه « عم خالد » واقفا عند الباب فبادرنى بالتحيه وأسر إلى بهذه الكلمه « مفتش يا بيك » فسألته من أى نوع فأجاب « وش جديد لا أعرفه » .

فاسرعت مهرولا فى مشيتى والبواب يعجب لهذا التغير الفجائى الذى أعترانى ، ودخلت المدرسه فوجدت جميع الزملاء يروحون ويجيئون فى حركات عصبية غريبة يصدرون أوامر للفراشين لتحضير الدروس . وكان المنظر غير عادى كأنه استعداد لمصائب خفيه وذهبت إلى المعمل وطلبت من الفراش أحضار طباشير ملون ، وأرنب ، وناقوس زجاجى ، وكلوروفورم ، وعلبة تشريح . وأمسكت كراسة التحضير ودونت فيها كل ما فاتنى تدوينه مما وعته الذاكره . ثم أنتشرت فى أرجاء المدرسة أشاعة وجود (المفتش) ولم يعرب أحد منا مهمة المفتش وأعتبرناه مبعوثا للجميع وقصدت حجرة المدرسين فوجدت الجميع منهمكين فى تحضير الدروس يتخاطفون محبرة الحبر الأحمر والأخضر والأصفر لتزيين كراسة التحضير التى تعتبرها الوزارة كل شىء مع أنها لا تؤدى رساله ما . وكثيرا ما تدون فيها دروس لا تلقى البته على التلاميذ .

كل هذا كان يحدث بين المدرسين بينما كان المفتش يجلس فى قاعة الناظر وفى فمه سيجاره يدخنها . وكان صامتا طوال الوقت والناظر يعرض عليه فى أدب جم أحوال المدرسه وسير الدراسة فيها . ثم أرسل الساعى إلى منزله ليعدوا غذاء خاصا للبك المفتش . ودق جرس الحصة الاولى فذهب المدرسون إلى الفصول كل يترقب الزيارة المشئومة . وانتهت الحصة الاولى ، وذهبت إلى المعمل ، ودخل التلاميذ . فطلبت إليهم المحافظة على النظام ، والسكوت ، وهددتهم بالعقاب . و بدأت فى القاء الدرس فأسر أحد الاشقياء إلى زميل آخر كلمات لم أفهمها . والتلاميذ يعرفون بدورهم أن المفتش أنما يحضر ليختبر المدرس ولذلك يعمل بعضهم لضغينة ما إلى أدعاء الجهل فى حضرة المفتش . وقد يلقى أحدهم بعض أسئلة محرجه على المدرس ، كما يحدث أن يمر المفتش بين صفوفهم لفحص كراساتهم فيدلون إليه بأكاذيب باطله . وكنت وأنا القى الدرس أراقب الباب واتسمع إلى الخطى فى الخارج . وكدت أطلب إلى التلاميذ الوقوف لتحية المفتش حين أطل الفراش برأسه يطلب ورقة الغياب وقد ساءلت نفسى :

لم كل هذا الخوف من الطارق الجديد؟؟ فالناظر يخاف هو الأخر من المفتش والمفتش يخاف من المراقب والمراقب يحسب حسابا لوكيل الوزارة وما يحدث فى وزارة المعارف يحدث أيضا فى أية وزارة أخرى وفى أية بيئة أخرى . وكل شىء فى الشرق أساسه الخوف والوعيد . والكراهية المتبادلة ، فالمدرس يصب جام غضبه على التلاميذ لأنه هو الآخر مهدد

من رؤسائه ، ولو أننا عودنا منذ الصغر حمل المسئولية كواجب وطنى بشىء من الترغيب والملاطفه ، واللين ، والوعد بمكافأة من يحسن عمله لأصبحنا كغيرنا من الأجانب نؤدى واجبنا على الوجه الأكمل فكلنا يعرف الفرق بين الأنجليزى والمصرى مثلا . ولعلك تلمس هذا فى المدرسة فمفتش اللغة الأنجليزية مثلا يجالس المدرسين ويأنسون إليه ويفرحون بمقدمه . ويولمون له الولائم ويلاعبونه التنس والورق . ويصارحونه ويصارحهم ويطلبون إليه مطالب فلما ترفض كل ذلك يرجع إلى أن الطفل الأنجليزى لم يدرج فى مهد الخوف ولم يتعلم بالتهديد والوعيد وهو لا يعرف العفريت ، ولا الخوف من الظلام .

دق الجرس معلنا أنتهاء الدرس فخرج المدرسون إلى ردهة المدرسة ولم يعرف أحد بعد مهمة هذا المفتش لأن أحداً منا لم ينعم بهذه الزيارة وأخيراً عيل صبرنا ولم تجد بداً من أستطلاع أمر هذا المفتش الجديد وما أن عثرنا بأحد ضباط المدرسه وكان له دالة على الناظر فرجوناه أقتحام غرفته . وما أن دخل وغاب حتى خرج إلينا يجر البيك المفتش ممسكا بتلابيبه وهو يضحك ويقهقه مفتش سينما يابهوات ، لا يضر ولا ينفع ، وياريت كل المفتشين كده .

يناير سنة ١٩٣٣

سافرنا لحضور مبارة كرة القدم بين فريق مدرستنا وفريق مدرسة أخرى وتصادف أن كانت بهذه المدينة فرقة تمثيل ، وأتفق أن خرجنا بعد العشاء للترويح عن النفس . فلفت أنظارنا جمع من الناس أحتشدو

أمام باب أحدى المقاهى ، وقد علق عليه أعلان كبير عن اسم الفرقة ورواية صلاح الدين الأيوبى ، وأسعار الدخول . . . ، وكان بين هذا الجمع رجل فى لباس التمثيل وقد علا الهرج داخل القهوه وكثر التصفيق والصفير من جماعة النظارة ، وخرج البعض إلى الشارع والتف الناس حول وزير بيت التمثيل وزير الملك العادل صلاح الدين العظيم ، وتقدمنا من هذه الجموع المحتشدة وسمعنا منهم نفراً يقنع الوزير بالعودة إلى خشبة المسرح ، ويقول : أن الستار على وشك الأرتفاع وأحتدم الجدال ، وصاح الوزير بصوت مختنق كيف يستطيع التمثيل وهو لم يذق طعاما منذ الأمس . . . وأعتذر عن القيام بهذا الدور ، لأن الأولى به أن يمثل دور الصائم ، وكان منظر الوزير ينم عن ألم دفين وأخيراً صاح أحد النظاره وكان نشوان (مفيش سميطه يا هوه . . . لصاحب المعالى) .

وكان لهذا المنظر أثره فى نفسى وجعلت استعرض شتى المآسى والصور وتذكرت ما تعانيه هذه الهيا كل البشريه من صنوف العذاب والبؤس ، وكثيرا ما كنا نكتتب لهم بالقليل من المال ، لنجمع لهم أجور ترحيلهم إلى العاصمة وهم روميو وجوليت وفنانون وفلاسفة على خشبة المسرح وكلهم صحايا نفر قليل يجلبونهم من العاصمة الزاخرة كأنهم سلع بائرة ويموهون عليهم ويدخلون فى روعهم أنهم سيصيبون رزقا وفيراً ، وما يزالون يجوبون بهم البلاد النائية يعرضونهم على الناس لقاء ربح قليل أو كثير . وكأنى بهؤلاء الفنانين دمى صخرية أو هم فى غيبوبه لا يشعرون بما حولهم ، ولا يأكلون ولا يشربون ، وما زالت

تتتابع ، أمام نظرى هذه الصورة الحزينة . . . التى جعلتنى أتذكر زملاء لى فى المهنة يعانون أكثر مما يعانى هؤلاء الفنانون على مسرح التعليم ، ولعل من هؤلاء الزملاء المساكين من يصل طول يومه يلقى العظات والدروس وهو خاوى الوفاض يبيت على الطوى ، ولعل من بينهم أيضا من يتمرد ويثور ويفارق الفصل ويحاول نفر من أخوانه أن يقنعوه بالعودة إلى الفصل ليعاود الدرس ويخرج وراءه تلاميذه يجرونه من تلابيبه ، ويكثر الهرج وتسود الفوضى وترتفع الجلبه ، ولعل من بين هذه الجموع المحتشدة من يصيح فى غيره نشوه « مفيش سميطة ياهوه للمعلم . . . » .

٢٠ فبراير سنة ١٩٣٣

كنت فى مدرسة بأحدى عواصم الصعيد . وكان بها نسبة لا بأس بها من الخدم كلهم من قرية واحدة فى الوجه البحرى . ويقال : أن هذه القرية مسقط رأس شخصية باره بأهلها وبهذه المناسبة أذكر أن أحد مفتشى الوزارة مر بالمدرسة ، وصارحنا أنه موفد من قبل أحد المسئولين فى الديوان العام ، لقطع عيش بعض الخدم واحلال آخرين محلهم .

وأخيراً فرض على هذه المدرسه فراش منوفى أثرى بعد زمن وجيز وقد اشتهر هذا الرجل ببخله وتكالبه على جمع المال وبلغ من حرصه ودقته أنه لا يخرج مالا دون رهن ، وحدث مراراً أن سئل أحد الفراشين عن الوقت فأجاب بان ساعته مكسورة ، وقد يتاخر جرس

الحصة ، فيعتذر المكلف بهذا بأن ساعته مفقوده . وهذا الجواب عن الساعة المفقودة والمكسورة يتكرر دائما بعد اليوم العاشر من كل شهر ، وقد بدأت الدوائر فى المدرسه تهتم بهذه الظاهره العجيبه وأخيراً أكتشف أمرها وأتضح أن هذا الفراش المنوفى يقرض زملاءه قرضا فاحشا ويرهن الساعات عشرين يوما لا يفك عقالها الا فى أول الشهر و بتنظيم الوقت فقط فى المدرسة مدة عشرة أيام والحمد لله على أن ساعات المدرسين لم ترهن بعد ، ولكن اليسوا هم الآخرين فى ضنك شديد وما أحوجهم إلى زميل مراب يمدهم عند عوزهم .

الواقع أن مهنة المدرس مهنة شاقه وهو مطالب دائما أن يقول : كلاما معقولا منطقيا يبدأ بالجرس وينتهى بالجرس ، ومن الذى يستطيع أن يقول : دائما كلاما معقولا ؟ وهو مطالب أن يضبط عواطفه وأن يجعل من هذه العقول المتفاوته فى الغباء (عقول تلاميذه) عقلا واحداً يتفهم ما يدلى إليه وهو مطالب أن يتكلم فى وقت هو أحوج ما يكون فيه إلى السكوت وهو فى كل هذا قانع مطيع لا يطلب شيئا مقابل هذه التضحيات الجسام وهو أن ظفر بشىء فى مهنته هذه فانما يظفر بالعاهات والأمراض وقل أن يسلم منها ، والناس يحسدونه على أنه يتمتع بعطله سنويه ولو أنصفوا لعلموا أنهم ظالمون فما أحوج المدرس إلى عطلة أطول يقضيها فى أحدى مستشفيات الأمراض العقلية فهو من مهنته فى حرب مع أعصابه .

وفرض على المدرسه فيمن فرض بستانى تحسبه لنحول جسمه ميتا

بعث لساعته من قبره وهو لم يحذق من فنـه الا العمامة الصفراء التى يلبسها عادة أبناء طائفته ، وكان الرجل قاسيا على كل ما حوله . على الناس والحيوان حتى على النبات وأطلق عليـه تلاميذ المدرسة وكثيرا مايطلقون أسماء هزلية فى بيئتهم. اسم الشيخ زحل، وكان لهذا الشيخ زحل أراء ومشاريع لـكنها خياليه ، وكان يشكو دائما من قلة الأيدى العامله معه فى حدائق المدرسة ، وطلب منا لاصلاح الأرض أن نقلبها رأساً على عقب وأن يمدها بطمى جديد ، وهو لهذا فى حاجة إلى ثلاثين عاملا يعملون معه مدة شهر أو أكثر فحققنا له مطلبه . وذات يوم حضر هؤلاء العمال فى شبه ثوره يضجون ويصخبون وعلت أصواتهم بالشكوى ولمـا سئلوا عن سبب هذا . قالوا : أن الشيخ زحل قد فرض عليهم دفع ضريبة يومية يتقاضاها منهم ، وكل من يمتنع عن الدفع يعاقب بالطرد والحرمان ، والغريب فى أمر الشيخ زحل أنه لم ينـكر ما نسب إليه . وقال : فى صراحة أنى لم أفعل أكثر ممـا فعله معى رؤسائى ، فقد فرضوا على مقابل هذه الوظيفة أن أدفع مرتب أربعة شهور مقدما وها أنذا أحصل هذا المبلغ من هؤلاء التعساء .

ولادة ولادة

١٠ مارس سنة ١٩٣٤

مرت على حوادث هذا اليوم أكثر من ثلاث سنوات . ولا تزال ذكرياته ماثلة أمامى مفعمة بصنوف شتى من الجد والهزل .

حضرت إلى القاهرة فى زيارة قصيرة نزلت فيها ضيفا على طبيب تربطنى به صداقة قديمة ، وفجأة قال : لى هذا الصديق بعد أن وضع سماعة التليفون لقد استدعونى لانقاذ حياتها فقاطعته قائلا : حياة من ؟ فأجابنى على الفور سأسطحبك معى فى نزهة قصيرة إلى أحدى ضواحى القاهرة . على شرط أن تلزم الصمت ، وأن تكف عن القاء الأسئله فعاهدته على ذلك ، وأنطلقت بنا السيارة تطوى الأرض حتى وقفت أمام « فيلا » فخمة تحيط بها حديقة غناء ولفت نظرى وجود عدد كبير من السيارات من موديل سنة ١٩٥٠ ، وكانت الحديقة تموج بآنسات وسيدات الطبقة الراقية ، وقد تناثر هنا وهناك زوج أبله .

كان كل شىء فى الحديقة طبيعيا إلا هؤلاء الأدميين تحسبهم لما بينهم من شبه عجيب كأنهم صنعوا فى أحدى مصانع فورد بأمريكا وكأنهم صبوا فى قالب واحد يتكلمون كلاما مخصوصا لا يفهمه غيرهم وجوه شاحبه أختفت تجعداتها تحت المساحيق واسنان وأصابع مصفرة من كثرة ما علق بها من أثار التبغ .

قال : صديقى لم يخطئنى الحدس ، فقد حضر كذلك أساطين الطب

وغيرهم من عليه القوم ورجال العلم فلم أشأ أن أسأله ، وقد عيل صبرى من لهجته وطريقته المصطنعة فى الألقاء ، وقد اشتهر بيننا باسم الممثل كين ، وما عسى أن يكون هؤلاء فلان دكتوراه فى اللغة العربية من أحدى جامعات أيسلاند أو جزر الشيطان أو بلاد واق الواق أو بلاد تركب الأفيال ، ويشغل الآن وظيفة مدير أعمال فى مصلحة المجارى ، وفلان دكتوراه فى تعبئة العجوه والبطيخ واستخراج الدهن من الصوف من جامعة كاليفورينا ، ويعمل الآن فى مصنع زجاج ، وهـذا السيد الواقف هنالك عضو فى أكثر من جمعية علمية ، وقد توصل أخيراً إلى إطالة عمر بعض أنواع الخنافس والصراصير بتقديم غـذاء لها خال من الفيتامين ، وهو مع ذلك موظف كبير ، وهذه السيدة الثرثارة الجالسة على المقعد الخشبى تدخن كأنها القاطرة ، وتتكلم الفرنسية كما تتكلمها بقرة دمياطية . استنبطت طريقة جديدة لحياكة الفساتين من غير ما قماش وملابس عارية ولعلها أول من استعمل كلمة بنجور فى ظلام الليل البهيم بين أشجار الجميز والسنط ، وقد اختفى القمر .

كنت اسمع بين آونة وأخرى أهات وأنات وتنهدات يعتلج بها صدر سيدة نصف . التف حولها جمع من السيدات تأثرت لمرأها ، وقد بدت حزينة واجمة لكثرة ما استنفدت من دمع سخين ، وكنت أسمع اسم سوسى تردده هذه الشفاة المصبوغة فجعلت أردده معها متوسلا إلى الله أن يكشف هذه الغمة وأن يحفظ لهذه الأم وحيدتها . كان الخدم يروحون ويجيئون فى شبه حركة آليه يؤمرون فيطيعون وكان على

هـــذا أن يسبق الريح ليحضر مصلا ، وعلى ذاك أن يعدو ليجيء بالمسكنات ، وكان علينا جميعا أن نخفت الصوت لنمهد لراحة المريضة وبعد هنيهة خرج أحد الأطباء وأسر فى أذن زوج معتوه بعض الكلمات وتركه ، وقد تهللت أسارير وجهه بالبشر والفرح ، وتقدم هذا من ربة الدار مهنئا . وقال لها : لقد أنقذت وتحققت المعجزة وأخرج منها الجنين ميتا ، وقد استطاعوا أنقاذ حياة وليد آخر .

عم السرور وتقابلت الأيدى والشفاه بالتهنئه والتهليل ، ووعدت ربة الدار أن تقيم سبوعا حافلا بالشمبانيا وجميع أنواع التسلية . خرج صديقى وخرجت معه ولم أطق صبراً وسألته عن سر هذا كله فقال لى: لقد أنقذناها ووحيدها بعد صراع مع الموت وتجلت المعجزة الكبرى .

فقلت : أنقذت من ؟ ؟ فاجاب أنقذت الكلبة سوسى . . . كلبة صاحبة البيت . . . فعذوره لقد فاتنى أن أنوه أن صديقى طبيب بيطرى .

وفى مكان آخر من وادى النيل السعيد تركت أمرأة بائسة تعانى الام الوضع وتغالب الموت ، وقد التف حولها بعض النسوة من الجيران فى ثياب سود كأنهن لقرط الكآبة بوم وغربان .

* * *

حضرت عربة المستوصف ، وتقدمت أحدى القابلات ، وفحصت المريضة وقالت : فى تأثر عميق « ولادة متعسرة » ونصحت باستدعاء

الطبيب المختص فوراً وأسرعت بالخروج من هذا الجو الموحش فذهب ابن المريضة للتو إلى أحد الأطباء يستدعيه ، واشترط هذا الأخير أن ينقد اجره مقدما ، ونظراً لغياب الأب فى سفر طويل لم يكن ذلك ممكنا طبعا ، وفارقت المسكينة الحياة بعد ولادة شاذه عسيرة اشتركت فيها امرأة عجوز من الجيران ، وشاع هذا الخبر فى المدينة ، و بلغ مسامع الرؤساء ، وكان على الطبيب أن يختار بين الاستقالة « وادفو » ولكن شيئا من هذا لم يحصل ، فقد سارع الطبيب ، وخطب وتزوج احدى بنات من استطاع استبدال كل هذا بنقل الطبيب إلى القاهرة ينعم بها و بمحاسنها .

محتويات الكتاب

	صفحة
الرقص فوق الأعماق	١
مصرع امرأة	١٦
الثعبان البشرى	٢٢
الانتقام البارد	٣١
حب فى الخريف	٣٧
المنتظرة	٤٢
الاعتراف	٥١
الجثة الحية	٥٥
الأسماك الجائعة	٦١
بيت الشموع	٦٨
التمثال الثالث عشر	٧٢
فرخة توت	٨١
الكلب الرخيص	٩١
الشخص الثالث	١٠٢
هذا كساء الموتى	١١١
العزول	١١٧
ولادة وولادة	١٢٤

obeikandi.com